

الفصل الخامس عشر

الجنوب المراح

١٦٤٨ - ١٧١٥

١ - ايطاليا الكاثوليكية

من حكمة الفلاح الصامته أن فى الامكان اصلاح التربة التى كادت يرهقها الثمر الوفير باراحتها فترة ، وربما بحرثها دون زرعها . وهكذا استراحت ايطاليا بعد خصوبة النهضة التى أرهقتها . وأبطأ تدفق حيويتها العارمة ، وكأنها تستجمع قوتها لمزيد من جلائل الأعمال . فعلىنا اذن ألا نتوقع من ايطالية هذا العصر والعصر التالى له - بين برنينى وبونابرت - ثمارا كتلك التى تدفقت من معينها الفياض فى قرونها الذهبية . اننا نلم بها هنا مرة أخرى ، قانعين اذا استطعنا بين الحين والحين أن نسمع فى مدنها التى تردد أصداء التاريخ أصواتا صغيرة تشهد بحياة لم تنطفىء جذوتها .

وكانت لا تزال كاثوليكية بطبيعة الحال ، فذلك من صميم روحها ، ولا سبيل الى انتزاعه منها دون انتهاك لروحها . كان فقراؤها يظلمهم الأغنياء ، الذين هيمنوا بالطبع على الحكومات وشرعوا القوانين . وعلل الأغنياء هذا الظلم بأن الفقراء سيصبحون مشاغبين وقحين اذا رفعت أجورهم . أما النساء فكان يستغلن الرجال والشعب ، الا أن يكن فى ربيع حسنهن . فى هذه الأحوال كانت طبقات الشعب الدنيا ، والجنس الاضعف آنذاك ، تجد عزاء فى خدمات الكنيسة . وكان ايمانها بالعدل الالهى سندا يعزيها عن قسوة الانسان ، وكانت خطايا أسنتهم الحادة وجسدهم الوثنى يغتفرها دون تردد القساوسة المتسامحون والرهبان اللطفاء الذين أطعموهم والرجاء يملا نفوسهم . وكانوا شاكرين لما تخلل أيامهم المثقلة بالأعباء من أعياد ومهرجانات مريحة يحتفلون فيها بذكرى قديسيهم الحامين . وآمنوا بأن قديسيهم ، والام العذراء الرحيمة ، سينقذونهم من أهوال الجحيم بتشفعهم أمام عرش

لله ، وبأن الغفرانات التي توزعها الكنيسة ستقصر مقامهم في المطهر ،
وانهم سيدخلون ، ان عاجلا أو آجلا ، فردوسا - يفوق جماله حتى
جمال ايطاليا - لن يكدر صفوه ملاك ، ولا ضرائب ، ولا عشور ،
ولا حرب ، ولا حزن ، ولا ألم .

وهكذا احتملوا بصبر ، ومرح ، وغناء ، ابتزازات كهنتهم الذين
لم يخل منهم مكان ، والذين التهموا على الاقل ثلث ايرادات الامة .
وأحبوا كنائسهم كأنها جزر من السلام وسط حرب الحياة . وتأملوا بهاء
كنيسة القديس بطرس وفخامة الفاتيكان في فخر لا يخالطه استياء
ولا غيظ ، فتلك حصيلة دراهمهم ونتاج فنانيهم ، وهي ملك للفقراء
أكثر من الاغنياء ، وهي في نظرهم ليست أفخم من أن تكون مثوى لأول
الرسل (بطرس) ، أو مسكنا لزعيم العالم المسيحي ، خادم خدام
المسيح . واذا كان ذلك الأب الأقدس يعاقب الهجمات التي توجه
للكنيسة ، فما ذلك الا ليمنع الحمقى من تدمير صرح الاخلاق القائم على
العقيدة الدينية ، ليصون ذلك الأيمان الذي جعل من نثر الكد والشقاء
ملحمة شعرية .

أما ديوان التفتيش الايطالي فكان رحيمًا نسبيًا في هذا العصر .
وأشهر ضحاياه قس اسباني يدعى مجويل دي مولينوس . ولد في
سرقسطه ، وسكن روما . وفي ١٦٧٥ نشر كتابه « المرشد الروحي »
الذي يزعم فيه أنه وان كان التعبد للمسيح والكنيسة معينًا على بلوغ
أسمى الحالات الدينية ، الا أنه يجوز للعابد الذي انقطع للاتصال
المباشر بالله أن يتجاهل وهو مطمئن كل الوساطات الكهنوتية والطقوس
الكنسية . وفي نبذة أخرى رأى مولينوس أنه لا حرج على العابد الواثق
من تحرره من الخطيئة الأخلاقية في أن يتناول القربان دون أن يعترف
للكاهن قبل تناول . واجتذب « مرشد » مولينوس النساء على الأخص
فالتمت نصيحته المئات - ومنهن الأميرة بورجيزي والملكة كرسطينا ،
وأرسلن له الهدايا . واعتنقت راهبات كثيرات هذه « الهدوئية »
الجديدة ، ونبذن أورادهن ، واستغرقن في صلة فخور بالله . وشكا
العديد من الأساقفة الايطاليين من هذه الحركة التي قللت من شأن
الخدمات والتبرعات الكنسية ، وناشدوا البابا انوسنت الحادي عشر أن
يقمعها (١) . وهاجم اليسوعيون والفرنسيكان مولينوس لأنه أكد على

الايمان دون « الأعمال » تأكيدا يكان يكون بروتستانتيا . وبسط عليه اليبابا حمايته حيناً ، ولكن ديوان التفتيش الرومانى قبض عليه فى ١٦٨٥ ، ثم على نحو مائة من أتباعه . وكان قد جمع أربعة آلاف كراون ذهبى (٥٠٠٠٠٠ دولار ؟) يفرضه رسماً صغيراً على المشورة التى يبذلها لمراسليه ، ونستطيع الحكم على عدد هؤلاء المراسلين من تكاليف البريد على الخطابات التى تسلمها فى يوم القبض عليه ، والتى بلغت ثلاثاً وعشرين دوكانية (٢٨٧٥٠ دولاراً ؟) (٢) .

وبعد أن فحص ديوان التفتيش السجناء وضع قائمة بالتهمة الموجهة اليهم ، وأهمها أن مولينوس برر تحطيم صور المسيح المصلوب والتمثيل الدينية لأنها تعوق هدوء الاتحاد بالله ، وأنه ثبت همـه الأشخاص الذين أرادوا نذر أنفسهم للدين أو الالتحاق بالطرق الدينية ، وأنه قاد تلاميذه الى الاعتقاد بأن لا شيء يأتونه بعد بلوغهم الاتحاد بالله يمكن أن يكون خطيئة . ولعله اعترف تحت ضغط السجن ، أو التعذيب ، أو الخوف ، بأنه اغتفر تحطيم الصور ، وبأنه ثنى الأشخاص الذين رأهم لا يصلحون للرهبة عن نذر أنفسهم لها ، واعترف بأنه ظل سنين كثيرة يمارس « أكثر الأعمال خروجاً على اللياقة مع امرأتين » وأنه « لم ير ذلك اثماً بل تطهيراً للنفس » ، وأنه بذلك « استمتع باتحاد أوثق مع الله » (٣) . وأدان ديوان التفتيش ثمانى وستين دعوى وجددها فى كتب مولينوس أو رسائله أو اعترافاته ، وفى ٣ سبتمبر ١٦٨٧ وجه اليه الاتهام فى احتفال عام مما يحرق فيه المهرطقون *auto — da — fé* وحضر جمع كبير ، وطالبوا بحرقه ، ولكن المحكمة قنعت بالأمر بسجنه مدى الحياة . وقد مات فى السجن فى ١٦٩٧ .

ولعلنا نتعاطف أكثر مع « المهرطقين » الألبين الذين بكاهم ملتن فى سونيقة سماها « حول المذبحة الأخيرة فى بييدمونت » . وبيان ذلك أنه كان يسكن الاودية الرابضة بين بييدمونت السافواوية ودوفينه الفرنسية قوم يدعون الفودوا ، هم حفدة « الفالدينز » الذين سبقو حركة الإصلاح البروتستانتى وعاشوا بعدها ، والذين احتفظوا بعقيدتهم البروتستانتية خلال عشرات الانقلابات التى طرأت على القانون والحكومة

وفي ١٦٥٥ انضم الدوق شارل ايمانويل الثانى أمير سافوى الى لويس الرابع عشر فى تنظيم جيش لأكراه هؤلاء الفودوا على اعتناق الكاثوليكية . وأثارت المذبحة التى أعقبت ذلك سخط كرومويل ، فحصل من مازاران على أمر بوقف هذا الاضطهاد . ولكن بعد موت حسامى الجمهورية (كرومويل) والكردينال (مازاران) تجدد الاضطهاد ، فلما ألغى مرسوم نانت استأنفت الدولة الفرنسية جهودها فى استئصال شأفة البروتستنتية من الاقليم . وألقى الفودوا السلاح على وعد بالعفو العام ، وما لبث ثلاثة آلاف منهم ، مجردين من السلاح ، وفيهم النساء والأطفال والشيوخ ، أن ذبحوا ذبح الأنعام (١٦٨٦) . وسمح للباقيين منهم على قيد الحياة ، الذين أبوا اعتناق الكاثوليكية ، بالهجرة الى أرباض جنيف . ثم جاء دوق آخر لسافوى يدعى فيكتور أمادبوس ، وجد نفسه فى مشكال السياسة حليفا لفرنسا بل عليها ، فدعا الفودوا للعودة الى أوديتهم (١٦٩٦) . فعادوا ، وقاتلوا تحت لوائه وسمح لهم بعدها بعبادة المجهول على طريقتهم المؤمنة .

أما الفقراء فكانوا فى الولايات البابوية يعانون فقر اخوانهم فى كل مكان بإيطاليا وكانت الإدارة البابوية (الكوريا) ، كأي حكومة ، تفرض الضرائب على رعاياها الى الحد الذى يهبط بعائدها ، فلم يتح لها قط من المال ما يكفى لأغراضها وموظفيها . وقد أنذر الكردينال ساكىتى البابا اسكندر السابع (١٦٦٣) بان جباة الضرائب يفقرون السكان حتى يشرفوا بهم على حافة اليأس ، فقال : « ان أفراد الشعب ، الذين لم يعودوا يملكون من الفضة أو النحاس أو الثياب أو الاثاث ما يشبع جشع الجباة ، سيضطرون الى بيع أنفسهم ليلبوا المطالب الثقيلة التى فرضتها عليهم الكاميرا (الغرفة التشريعية للكوريا (٤) » . وشكا الكردينال من الرشوة فى القضاء البابوى ، ومن الاحكام التى تباع وتشترى ، والدعاوى التى يطول نظرها سنين عديدة ، والعنف والطغيان يعانيتها الخاسرون الذين يجرعون على استئناف الحكم من موظف أدنى الى آخر أعلى . يقول ساكىتى « ان هذه المظالم أفدح من تلك التى نكب بها بنو اسرائيل فى مصر . فالناس الذين لم يغلبوا بالسيف بل اخضعوا للكرسي البابوى . . . يعاملون معاملة أكثر وحشية من معاملة العبيد فى سوريا أو أفريقيا . فمنذا يستطيع أن يشهد

هذه الأشياء دون أن يذرف عليها دموع الحزن والأسى (٥) ؟ « وفي وسط فقر الجماهير كان العديد من الأسر النبيلة التي تربطها رابطة القرابة بالبابوات أو الكرادلة يتلقى الهبات السخية من إيرادات الكنيسة .

أما بابوات هذا العهد فلم يكونوا زهادا كبيوس الخامس ، ولا رجال دولة كسيكستوس الخامس ، انما كانوا في العادة قوما طبيين ، أضعف من أن يتغلبوا على الرذائل البشرية المحيطة بهم ، أو يراقبوا مئات الثغرات والاركان التي ينفذ من خلالها أو يختبئ فيها الفساد في ادارة الكنيسة . ولعل أى مؤسسة بلغت هذا المبلغ من الاتساع وكثرة الواجبات لا يمكن وقايتها من الأخطاء الملازمة لطبيعة الانسان . وقد جاهد انوسنت العاشر ، (١٦٤٤ - ٥٥) ، « النقى الحياة المستقيم المبدأ (٦) » ليخفف من ثقل الضرائب ، ويكبح استغلال النبلاء الجشعين للإيرادات البابوية ، ويصون النظام والعدل في ولاياته . وتبدو عليه - كما صورته فيلاسكويز - كل مظاهر الخلق القوى ، ولكنه سمح لغيره بأن يحكموا نيابة عنه ، وترك أوليمبيا مايدالكنى ، زوجة أخيه الجشعة الطموح ، تؤثر في تعييناته وسياساته ، فكان الكرادلة والسفراء يتذللون أمامها ، وأثرت من هداياهم ثراء صارخا ، ولكن لما مات انوسنت زعمت أنها أفقر من أن تنفق على مأتمه (٧) .

وروى أن كردينالا قال في مجمع الكرادلة الذي اختار خليفته « يجب أن نبحث عن رجل أمين هذه المرة (٨) » . وقد وجدوه في شخص فابيو كيجي ، الذي أصبح الاسكندر السابع (١٦٥٥ - ٦٧) . وقد بذل قصاراه ليظهر الادارة البابوية من الفساد وتعطيل الأعمال ، ونفى أبناء أخيه النهمين الى سيينا ، وخفض الدين العام . غير أن الفساد الذي أحاط به كان أوسع وأعم من أن يستطاع قهره . فألقى السلاح ، وسمح لابناء أخيه بالعودة الى روما ، وخلع عليهم المناصب الجزية ، فجمع أحدهم بعد قليل ثروة طائلة (٩) . وانتقلت القوة من يدي الاسكندر المتعبتين الى الكرادلة ، الذين طالبوا بالمزيد من السلطة في حكم الكنيسة . وحلت أرستقراطية من الأسر تفخر بكرادلتها محل الملكية المطلقة التي ثبتها مجمع ترنت من قبل البابوات .

وجدد كلمنت التاسع (١٦٦٧ - ٦٩) الكفاح ضد محاباة الأقرباء . وسمح لأقربائه ببعض الامتيازات المتواضعة ولكنه ولى ظهر لطلاب المناصب . وأقبل المئات من مسقط رأسه بيستويا ، واثقين من أنه سيعينهم على الأثراء ، ولكنه ردهم ، فهجوه هجوا ساخرا ، وهنا أيضا ندرك أن طبيعة البشر واحدة سواء فى الظالم أو المظلوم ، وان الناس هم أس البلاء المحيط بهم . وكان البابا الجديد رجل سلام وعدل . فبينما أصدر سلفه - بتحريض من لويس الرابع عشر - مرسوما مثيرا للمتاعب ضد الجانسنيين ، عرض كلمنت هدنة فى ذلك النزاع الناشئ داخل الكنيسة . ومن أسف أنه مات ولم يقض فى دست الحكم غير عامين .

وخلفه كلمنت العاشر (١٦٧٠ - ٧٦) وهو فى الثمانين ، فترك الامور للكرادلة (كما رتبوا الأمر من قبل) ، ولكنه أنهى عهده دون عيب يعيبه . وجاء انوسنت الحادى عشر (١٦٧٦ - ٨٩) وكان - كما قال رانكى البروتستنتى - رجلا « تفرد بتواضعه . . . غاية فى دماثة الخلق وهدوء الطبع » ، مدققا فى مسائل الأخلاق حازما فى شئون الإصلاح (١٠) . وقد أبطل « كلية » الموثقين الرسولين التى قال مؤرخ كاثوليكي « ان التعيينات فيها كانت تباع وتشترى بانتظام (١١) » وألغى الكثير من المناصب والامتيازات ، والاعفاءات ، (التى لا فائدة منها) ووازن الميزانية البابوية لأول مرة فى سنوات كثيرة ، وأرسي للنزاهة المالية سمعة مكنة الادارة البابوية من اقتراض المال بفائدة لا تزيد على ٣ ٪ . كتب فولتير يقول عنه « كان رجلا فاضلا ، وجبرا حكيما ، ولاهوتيا ضعيفا ، وأميرا شجاعا ، قوى العزيمة ، جليل القدر (١٢) » . وقد حاول عبثا أن يخفف من تعجل جيمس الثانى فى كثلثة انجلترا ، وأدان العنف الذى استعمله لويس الرابع عشر ضد الهيجونوت ، وقال ، « ان الناس يجب أن يهدوا الى دور العبادة لا أن يجروا اليها جرا (١٣) » ولم يجد ما يدعو له لمحبة ذلك الملك المتكبر الذى ادعى لنفسه من السلطة المطلقة على الكنيسة فى فرنسا ما يقرب من السلطة التى أكدها هنرى الثامن لنفسه فى انجلترا . ولكى يقتل انوسنت الحادى عشر من الجرائم فى روما ألغى حق اللجوء الذى سبق منحه لمساكن السفراء ، وأصر لويس على الاحتفاظ بذلك الحق لمبعوثيه ،

بل للشوارع المجاورة للسفارة الفرنسية ، وفي ١٦٨٧ دخل سفيره روما بفوج من الفرسان ليفرض بالقوة مطلب الملك . ووبخ البابا السفير ، وأوقع حرما على كنيسة القديس لويس التي كان يصلى فيها السفير في روما . واحتكم لويس الى مجمع عام ، وسجن ممثل البابا في فرنسا ، واستولى على إقليم أفنيون الذي كان ملكا للبابا منذ ١٣٤٨ . ومن هنا نظرة انوسنت الحادى عشر الهادئة المطمئنة الى الحملة التي جردها وليم أورنج الثالث ، البروتستنتى ، لخلع جيمس الثانى الكاثوليكي وادخال انجلترا في حلف ضد فرنسا . وقد تعاون البابا مع جهود لينتزر لاعادة الوحدة بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ووافق على تنازلات أعلنت جامعات ألمانيا البروتستنتية رضائها عنها ، وقد وصفه أحد الانجليز بأنه « بابا بروتستنتى (١٤) » .

وتوفى انوسنت الحادى عشر قبل أن يشهد انتصار أهدافه ، ولكن خلال بابوية الاسكندر الثامن (١٦٨٩ - ٩١) وانوسنت الثانى عشر (١٦٩١ - ١٧٠٠) تخلى السفير الفرنسي عن حق اللجوء ، وردت أفنيون للبابوية ، ونقل الاكليروس الفرنسي ولاءه من الملك الى البابا وأعاد الحلف الأعظم توازن القوى ضد فرنسا العدوانية . وفي حرب الوراثة الاسبانية وجد كلمنت الحادى عشر (١٧٠٠ - ٢١) نفسه وقد تورط في انقسامات أوروبا العنيفة ، فكان يلقي بنفوذه مترددا تارة في جانب وتارة في جانب آخر ، وفي النهاية اقتسم الملوك الأسلاب دون أن يستشيروا - حتى صقلية وسردينيا ، وهما - فنيا - اقطاعان بابويتان . كذلك كانت معاهدة وستفاليا قد تجاهلت احتجاجات انوسنت العاشر . لقد استلزم اشتداد النزعة القومية اضعاف البابوية ، وأسهمت هذه النزعة مع نمو العلم في تشجيع العلمانية والتهوين من دور الدين في الحياة الاوربية .

٢ - الفن الايطالى

أحس الفن كما أحست السياسة بهذه المنافسة المشتدة بين شئون الدنيا وشئون الدين . كان رجال الكنيسة لايزالون أغنى رعاة الفن ، يوصون بالمباني ، والصور والتماثيل ، والزخارف ، ولكن الارستقراطية

٧ - قصة الحضارة

استكثرت الآن من القصور بأسرع من الكنائس ، وتوددت الى الاجيال القادمة بالصور ، وأهدتها مجموعات من التحف الفنية . وفى ايطالية القرن السابع عشر جرى تيارا الرعاية هذان جنبا الى جنب فى انحدار بهى من النهضة الأوربية .

وكانت تورين تتخذ طريقها الى الثراء تحت حكم أدواق سافوى . وقد صمم جوارينو جوارينى لكتدرائية سان جوفانى باتيستا « كابيل ديل سانتيسيمو سوداريو » أى كنيسة الكفن الأقدس (الذى اعتقد المؤمنون أن يوسف الرامى كفن فيه جسد المسيح) . وقد انهارت قبة كنيسة سان فيليبيو الكبرى ، التى بدأها جوارينى ، قبيل أن تكتمل ، فرممها فيليبيو ايوفارا ، الذى ولد سنة ١٦٧٦ قبل موت جوارينى بسبع سنوات . ولعلنا نلتقى بايوفارا مرة أخرى .

وفى جنوة كان أروع بناء شيد فى هذا العهد هو قصر دوراتزو الذى بناه فالكونى وكانتونى فى ١٦٥٠ ، واشتراه بيت سافوى فى ١٨١٧ ، واستخدم بعد ذلك قصرا ملكيا للأسرة . وقد تحطمت قاعة مراياه الشهيرة فى الحرب العالمية الثانية ، وكانت رائدة لقاعة مرايا فرساي (١٦٧٨) ، فليس صحيحا اذن أن مارس (اله الحرب) عشق فينوس يوما ما . أما أبرز المصورين الجنوبيين الآن فكان اليساندرو مانياسكو ، وقد نجد نموذجا من فنه فى لوحة « مجمع اليهود » المحفوظة بمعهد الفن بشيكاغو ، أو لوحة « الغداء البوهيمى » المحفوظة باللوفر .

وواصلت البندقية انجابها للأبطال والفنانين . وأى عمل أعظم بطولة من الدفاع عن كانديا ضد ترك ؟ فطوال ربع قرن ظل جنود الباب العالى وبحارته يهاجمون كريت ، وكانت يومها مستعمرة للبندقية ، وهلك فى تلك الحملات العنيفة ١٠٠.٠٠٠ تركى (١٥) ، ومع أن جيشا عدته ٥٠.٠٠٠ مقاتل استولى على بعض المدن الصغيرة فى الجزيرة ، فان العاصمة صمدت للحصار عشرين عاما ، وصدت اثنين وثلاثين هجوما . وفى ١٦٦٧ أرسل فرانشسكو موروزينى ليقود الحامية المشرفة على الموت جوعا . وأخيرا سلمت (١٦٦٨) ، ولكن أحدا لم يعد يتكلم على تدهور البندقية . وفى ١٦٩٣ ، عندما تقلد موروزينى إمرة الاسطول البندقى ، تقهقر الاتراك حين اقترب منهم وقد روعهم

اسمه فقط . وكان فلا بيتزال من ذلك الطراز من الرجال الذي صوره
تنتوريتو وفيرونيزي - الشجاعة المجسمة التي لا تعرف الرحمة .

وكان بالداساري لاونجينا رجلا آخر من هذا الطراز السبعيني .
فقبل سنوات كثيرة (١٦٣٢) صمم كنيسة « سانتا ماريا ديلا سالوتي »
- أميرة البحيرات الجلييلة ، أما الآن ، وبعد سبعة وأربعين عاما ، فقد
شاد قصر بيزارو على القناة الكبرى - قصرا متينا بديعا بأعمدته
المزدوجة وكرانيشه المتعددة ، ثم بنى (وهو فى السادسة والسبعين)
قصر ريتزونيكو ، الذى سيموت فيه الشاعر براوننج . وهناك نبت آخر ،
صلب العود ، حمل البذرة البندقية الى نصف القارة ، وهو سبستيانو
مريتشي ، الذى ولد (١٦٥٩) بمدينة بلونو فى اقليم فنييتسيا ، وذهب
الى فلورنسة ليزخرف قصر ماروتشيللى ، ثم سار على أقل الدروب
ضنكا - الى ميلان ، وبولونيا ، وبياتشينزا ، وروما ، وفيينا ، ولندن .
وأنفق عشر سنوات فى انجلترا ، ورسم صورا فى مستشفى تشلسي ،
وبيرلنجن هاوس ، وقصر هامبتن كورت ، وكاد يظفر بمهمة زخرفة
كنيسة القديس بولس الجديدة . ثم مضى الى باريس ، حيث انتخب
عضوا فى أكاديمية الفنون الجميلة . ولوحته « ديانا والهوريات (١٦) »
غلمة كلوحات بوشيه ، لطيفة كلوحات كوريدجو . وعمر ريتشي حتى
١٧٣٤ ، وأسلم مهاراته للقرن الثامن عشر ، ومهد الطريق للعصر
الذهبي للتصوير البندقي أيام تيبولو .

أما المدرسة البولونية فلم تكن قد استنفدت قوتها تماما . فاشتهر
كارلو تشينيانى برسومه الجصية فى كتدرائية فرولى . وكشف جوزيبى
ماريا كرسبى (لوسيانيلو) فى « صورته الذاتية (١٧) » عن رجل
مستغرق فى الفن ، متناس كل متاعبه اذا اتيح له أن يرسم . وقد صور
جوفانى باتيستنا سالفى (« الساسوفيراتو ») فى لوحته « العذراء
تصلى (١٨) » ما فى المحبة من انكار للذات ، واراننا فى لوحته
« العذراء والطفل (١٩) » مجرد امرأة بسيطة ، سعيدة بوليدها
(البامبينو) ، كأي امرأة تراها فى أى يوم بين فقراء ايطاليا .

وقد حكم فلورنسه وبيزا وسيينا خلال هذه الفترة اثنان من كبار
أدواق توسكانيا ، فرديناند الثانى وكوزيمو الثالث . وفى ١٦٥٩ بدأت

سينا مهرجان الباليو (المعطف) المشهور : فكانت أحياءها العشرة تنظم موكبا بملابس بهية يسير فى شوارع زينت بالعمائر ، والرايات ، والزهور ، ونساء مرححات لابسات ثيابا جذابة ، ثم يتبارى فرسان الأحياء بجنون فى سباق على معطف السيدة العذراء التى كوست المدينة التقية نفسها وحياتها له منذ أمد بعيد . ولم تملك فلورنسة الآن من المصورين الا الصغار . وواصل كارلو دولتشي ، بفن أضعف ، صور جيدو رينى العاطفية ، المتأمل فى السماء ، التى رسمها للعذراء والقديسين ، والعالم كله يعرف لوحته « القديسة سيسيليا (٢٠) » . ورسم يوستوس سوترمانس ، الذى هاجر من فلاندر الى فلورنسة ، لوحات تعد من العجائب التى تشد الانتباه فى قاعة بيتى - وليس أقلها رأس جاليليو الرائع الجليل . كذلك كان يبدو موسى وهو يشرح الناموس ، لا كما نراه فى وحش ميكلانجلو ذى القرون .

وكان الفن فى روما يفيق من قيود الحركة المعارضة للأصلاح البروتستنتى . فعاد البابوات بقدر أخف الى روح النهضة ، وشجعوا الأدب ، والدراما ، والعمارة ، والنحت ، والتصوير . ورسم انوسنت العاشر الكابيتول وكنيسة سان جوفانى فى لاتيرانو . وكلف الاسكندر السابع برنينى بأن ينحت نطاقا رباعيا من حراس مصنوعين من الجرانيت حول ميدان القديس بطرس (١٦٥٥ - ٦٧) - فنحت ٢٨٤ عمودا و ٨٨ ركيزة ، ووفق فى صنعها الى تحويل الذهب الى حجر . وفى عهد هذا البابا أعاد بييترو داكورتونا بناء كنيسة سانتا ماريا ديلا باتشي ، حيث كانت عرافات رفائيل لا تزال تتأمل القدر . واشترك جيرولامو داينالدى مع ابنه كارلو فى تشييد كنيسة سانتاجيزى الجميلة فى ميدان نافونا . واشترك الوالد والولد ثانية فى تصميم كنيسة « يسوع ومريم » ، وبنى كارلو هيكل سانتا ماريا فى كامبيتللى ليضم تمثالا للعذراء اعتقد الناس أنه أوقف طاعون ١٦٥٦ . وكان الكرادلة والنبلاء يبنون مساكنهم ومدافنهم فى فخامة القصور . وارتفع الآن قصر دوريا وبهو قصر كولونا ذو الزخارف الباروكية المسرفة ، وفى كنيسة « يسوع ومريم » حفر فرانشسكو كافاللىنى لأسرة بولونيتى مقبرة لا بد أنها أثارت حسد الأحياء للأموات .

وأقام مصورون كثيرون الدليل على أن فنهم مازال حيا فى روما .

وقد خطب أهلها ود كارلو ماراتي ، فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، باعتباره زعيم المصورين فى الباروك الحديث . وصورته لكلمنت التاسع (٢١) كانت مذكرة بصورة فيلاسكويز لانوسنت العاشر ، ولكنها انتهت نهاية طيبة ، وصورته «العذراء مع القديسين فى الفردوس» (٢٢) تكرر لعشرات مثلها ، ولكنها صورة جميلة . وحين أراد كلمنت الحادى عشر ترميم لوحات رفائيل الجصية فى الفاتيكان عهد الى ماراتي بهذه العملية الدقيقة الخطرة على المرمم خطرهما على الرسوم ، فاداهما بكفاية . واختار اليسوعيون جوفانى باتيسنا جاوللى (الباتشتشو) ليبرسم قبو كنيستهم الأم « الجيزو » ، ولكن كان من بين أبناء طريقتهم راهب من أقدر فنانى عصره ، هو أندريا بوتسو ، الذى التحق بالطريقة وهو فى الثالثة والعشرين ، وصمم فى تلك الكنيسة مذبح القديس اجناتىوس - وهو من روائع الباروك . وفى ١٦٩٢ نشر بوتسو مقالا عن المنظور فى التصوير والعمارة أثار ضجة فى عدة لغات . واستهواه بموضوعه كما استهوى أوتشيللو موضوعه قبل قرنين ، فطور دراساته بنطائف « الخداعية » ، كما يرى فى صورته الجصية فى فراسكاتى . ودعاه الأمير فون ليشنتنتشتين الى فيينا ، فأفنى نفسه بكثرة المهام التى اضطلع بها ، ومات هناك فى ١٧٠٩ بالغا من العمر سبعة وستين عاما .

كان أعظم المصورين الايطاليين الآن فى نابلى . فكل شيء أينع وازدهر هناك - الموسيقى والفن ، والأدب ، والسياسة ، والدراما ، والجوع ، والقتل ، وشيء آخر لا يكف عنه الرجال الهائجون أبدا ، وهو مطاردتهم لجسد المرأة ومفاته ، المطاردة المرحية ، العنيفة ، الشجية . وتأثر سلفاتور روزا بكل عناصر الحياة هذه . وكان أبوه معماريا ، وعلمه عم له التصوير ، وكان زوج أخته تلميذا لريبيرا ، وقد أذن لسلفاتور نفسه فى الوقت المناسب بالالتحاق بذلك المرسم الجليل . وعلمه استاذ آخر تقنية مناظر المعارك الحربية . واشتهر سلفاتور على الأخص بهذه الصور التى ترى فى متحف نابلى القومى أو فى اللوفر . ومن المعارك انتقل الى مشاهد الطبيعة ، ولكن هنا أيضا أثرت روحه الوحشية رسم الطبيعة فى سوريات غضبها ، كما يرى فى لوحة باللوفر صور فيها الغيوم الكثيفة والأرض المظلمة يضيئها فجأة برق يحطم الصخور ويصوح الأشجار فى طرفة عين . وأقنعه لانفرانكو بالذهاب الى

روما والتودد للكرادلة ، فذهب وأثرى هناك ، ولكنه هرع قافلا الى نابلى ١٦٤٦ ليشارك في ثورة مازانيللو . فلما فشلت عاد الى روما ، وصور كبار رجال الكنيسة ، وكتب هجاء ساخرا تهكم فيه بالتurf الكنسي . ثم قبل دعوة الكردينال جانكارلو دي مديتشي ليذهب ويعيش معه في فلورنسة ، وهناك مكث تسع سنوات ، يرسم ، ويعزف الموسيقى ، ويقرض الشعر ، ويشارك في التمثيليات . وحين عاد الى روما ثانية ، سكن بيتا في التل البنسي ، حيث عاش بوسان ولوران من قبل . وتقاطر عليه أقطاب الكنيسة ، ليصورهم مغضيق عن هجائياته ، مؤثرين فرشاته على قلمه ، وكان احب الفنانين الى الناس في ايطاليا طوال عشر سنوات . وقد رسم صور القديسين والأساطير المألوفة ، ولكنه في محفوراته استسلم لعطفه على الجنود المساكين والفلاحين المعذبين ، وهذه المحفورات من أبدع آثاره .

ولم ينافسه في شهرته غير رجل آخر من أهل نابلى ، هو لوكا جوردانو . وكان فنانا وهو بعد في الثامنة ، ثم رسم في كنيسة سانتا ماريا لانوفا ملاكين بلغا من الجمال والرشاقة مبلغا جعل الحاكم يأخذه العجب حين رآهما ، ويرسل للصبي بعض القطع الذهبية مع توصية لربييرا . وظل يدرس على يد ذلك الاستاذ الغارق في تأملاته ، ويدهش كل انسان بسرعة نسخه للروائع وتقليده للأساليب . وتاق للذهاب الى روما وفحص رسوم رفائيل الجصية المشهورة ، ولكن أباه عارض في ذهابه ، لأنه يترزق من بيع صور لوكا ورسومه . ففر لوكا سرا ، وسرعان ما أخذ ينسخ بحماسة في الفاتيكان ، وفي كنيسة القديس بطرس ، وفي قصر فارنيزي . وتبعه أبوه ، وحصل على قوته هنا أيضا ببيع صور ابنه العارضة ، ويروى أن السر في تلقيبه « فا - برستو » هو حث أبيه له على السرعة .

فلما استوعب فن روما مضي الى البندقية ورسم على طريقة تيشان وكوريدجو صوراً لا تكاد تختلف عن روائعهما . ولكنه رسم الى ذلك صوراً أصيلة ظفرت بالاستحسان ، وفي وسعنا الحكم عليها من لوحته « انزال المسيح عن الصليب » المحفوظة بأكاديمية البندقية . ولما عاد الى نابلى زخرف اثنتى عشرة كنيسة بكفاية وسرعة لم يجد معها منافسوه حيلة الا أن يتسقطوا له الهنات ، ثم دعاه كوزيمو الثالث الى فلورنسة

(١٦٧٩) حيث ظفر بالاستحسان لصورة الجصية فى كنيسة كورسينى .

وأصاب صديقه كارلو دولتشي غم شديد حين رأى ما أحرزه لوكا من نجاح ، فمات بعد قليل (٢٣) ، وتروى لنا ايطاليا المحبة لفنانيها من الاساطير الكثيرة عنهم قدر ما ترويه عن قديسيها . وفى رواية أخرى أن نائب الملك الأسباني فى نابلى أوصى برسم حشوة كبيرة لكنيسة القديس فرانسس زافير ، وثار غضبه حين وجد أن شيئاً لم ينجز فى هذا التكليف رغم التأجيلات الطويلة ، وما راعه بعد يومين الا أن يجد العمل كاملاً وجميلاً . وقال نائب الملك « ان راسم هذه الصورة اما ملاك واما شيطان (٢٤) » .

وطبقت شهرة الملاك الشيطاني الآفاق حتى بلغت مدريد ، وسرعان ما تكاثرت الدعوات على لوكا من شارل الثانى لينضم للبلاط الأسباني . ومع أن الملك كان مشرفاً على الافلاس فانه وصل الفنان بألف وخمسمائة دوكانتية ، ووضع سفينة ملكية تحت تصرفه للرحلة . فلما بلغ جورديانو مدريد (١٦٩٢) استقبلته ست مركبات ملكية على الطريق . وما لبث أن بدأ العمل فى الاسكوريال وهو فى السابعة والستين . فزين بالصور الجصية سلم الدير الكبير ، وعلى قبو الكنيسة رسم « صورة طبق الأصل » من السماوات ، ترينا شارل الخامس وفيليب الثانى فى الفردوس - وقد غفرت ذنوبهما كلها تحية من الثالث الأقدس لال هابسبورج . وفى السنتين التاليتين رسم عدداً كبيراً من الصور الجصية يعدها مؤرخو الفن الاسباني خيراً ما رسم فى الاسكوريال (٢٥) . وفى « القصر » بمدريد ، وفى بوين ريتيرو ، وفى كنائس طليطلة والعاصمة ، رسم صوراً بلغت من الكثرة ، وأنفق فيها من الجهد ، ما جعل منافسيه يعيرونه بأنه يعمل ثمانى ساعات فى اليوم وفى أيام الأعياد . كذلك ساءهم أنه جمع ثروة بطرق غير لائقة ، وأنه يضيق على نفسه ولكنه يشتري الجواهر الغالية استثماراً آمناً لماله لأن كل شيء فى هذه الدنيا سيتغير ويتبدل الا غرور الانسان . وقد كرمه كل البلاط ، ووسفه شارل الثانى فى لحظة صفاء بأنه أعظم من ملك .

ومات شارل فى ١٧٠٠ ، ومكث جورديانو فى أسبانيا رغم ما تلا

ذلك من حرب الوراثة الاسبانية ، ولما ارتقى العرش فيليب الخامس ظل يتلقى تكاليفات سخية عسيرة . ثم عاد الى ايطاليا في ١٧٠٣ ، وتخلف في روما ليلثم قدم البابا ، ووصل الى نابلى والغار يكله . وعلى أسقف التشرتوزا (دير الكرتوزيين) بسان مارينو ، المطل على المدينة ، رسم في ثمان وأربعين ساعة سلسلة من الصور الجصية أظهرت نشاطا وحذقا لا يكادان يصدقان في رجل بلغ الثانية والسبعين (١٧٠٤) . وفاضت روحه بعد ذلك بعام وهو يقول متأوها « ايه يا نابلى ، يا نسمة حياتى (٢٦) » .

ولم يعد له شهرة عند وفاته فنان آخر في جيله . ونافس الأعيان الهولنديون الأباطرة والملوك في شراء صورته ، وفي انجلترا النائية تغنى مافيو برايور بمديح « جوردان الالهى » وأعجب عامة الناس بغنى ألوانه ، وبأس أشخاصه ، وجلال أفكاره ، وقوة عرضه . ولكن الفنانين - بعد أن أفاقوا من هذا الخدر العام - بينوا علامات التعجل في انتاج لوكا فا - برستو ، والخلط المتناقض بين الافكار أو المواضيع الوثنية والمسيحية في المشهد الواحد ، والمواقف المفتعلة ، والافراط في الاضاءة الساطعة ، والافتقار الى التناسق والهدوء . ولقد رد لوكا على ناقديه قبل ذلك بزمن طويل ، اذ عرف المصور القدير بأنه ذلك الذى يحبه جمهور الشعب (٢٧) . ومن العسير تنفيذ هذا التعريف ما دمنا نفتقر الى معيار موضوعى للامتياز أو سلامة الذوق ، ولكننا قد نجد أدنى محك ذاتى للعظمة فى مبلغ تأثير انسان ما فى الزمان والمكان ، وأدنى مقياس ذاتى للشهرة فى قدرتها على البقاء . ولقد سعد جوردانو بحياة ناجحة ، وهو لا يشعر بأى أذى من جراء شهرته الآفلة .

وكان الفنان فرانشسكو سولينا يناهز الثامنة والاربعين حين مات فا - برستو ، ولكن سنى عمره التسعين بلغت بمدرسة الفن النابولية قرابة منتصف القرن الثامن عشر . وكان لوكا قد رسم صحن دير مونتى كاسينو ، ورسم فرانشسكو الخورس ، وتهدم هذا وذاك فى الحرب العالمية الثانية . ولكن المتاحف تحتفظ بفن سولينا ، ففي فيينا « اغتصاب أوريثيا » وهى نشوة بضة من عضلات الذكر ومنعطفات الانثى ، وفى اللوفر نرى صدى وتحديا لرفائيل فى لوحته « هليودوروس يطرد من الهيكل » ، وفى كريمونا صورة « مادونا

أدولوراتا « ويصحب العذراء فيها ملاك فيه من العذوبة ما يجعلنا نتقبل فكرة الخلود اذا كان فى الجنة الكثير من أمثاله .

٣ - أوديسة كرسطينا

كانت الفنون الآن مجرد جزء صغير من حياة روما الثقافية . ففيها أيضا مئات من الموسيقيين ، والشعراء ، والمسرحيين ، والعلماء ، والمؤرخين . وقد يسرت المتاحف والمكتبات والكليات كنوز الماضي للطلاب ، وشجعت الأكاديميات الأدب والعلم . وكانت أوهام مارينى الموشاة مازالت عدواها تسرى فى الشعر الايطالى ، ولكن لذع هجائيات تاسونى ، وحرارة نزعة مارينى الحسية ، وتدفق مقاطع تاسو الفوار ، كل أولئك كان قد أعطى الشعر الايطالى حافزا والهاما مازالت تحس بهما النفوس المترنمة بالشعر .

أما أعظم الشعراء الغنائيين فى العصور الحديثة (٢٨) ، اذا صدقنا ماكولى ، فهو فنتشنزو دا فيليكايا . وقد شدا هذا الشاعر بتخليص سوبيسكى لفيينا فى قصائد غنائية شاكرة ، ورحب بمجىء كرسطينا الى روما فى تملق نشوان ، ووصف فى خذى ساخط اخضاع وطنه للجيش الدخيلة ، يقول :

« ايطاليا ، ايه يا ايطاليا ، يا من كتب عليك أن تلبسي تاج الجمال المهلك ، فأصبح سجل الويل والثبور موسوما على جبينك الى الأبد ! ليت ميراثك كان جمالا أقل وبأسا أشد ! حتى يجردك أولئك الذين يستخفهم الطرب لأن حقدهم أذك ، أكثر ارهابا أو أقل جمالا (٢٩) » .

على أن هنرى هالام ، الذى طوف لغويا خبيرا بكل الآداب الأوروبية ، ذهب الى أن كارلو اليساندرو جيدي ، لا فيليكايا ، هو الذى « ارتفع الى أسى ذروة بلغها أى شاعر غنائى ايطالى » و . . . « قصيدته الغنائية فى الحظ على الأقل تعدل أى قصيدة غنائية أخرى فى الايطالية (٣٠) . ولا يستطيع أحد لم يتمكن بعد من الايطالية أن يحسم هذا الخلاف بين ماكولى وهالام ولا بين جيدي وبترارك ، ولا بين فيليكايا وبيرون أوشلى أو كيتس .

كان جيدي واحدا من شعراء عدة صدحوا بقوافيهم فى صالون كرسينا بروما . وكانت ملكة السويد هذه قد طبقت شهرتها الأفاق لا ملكة على دولة عظمى فحسب ، بل راعية ونموذجا للعلم ، والمضيفة الحفية بسالماسيوس وديكارت . وكان تخليها عن التاج فى سبيل المذهب ، وتحولها عن البروتستنتية التى مات أبوها من قبل لينقذها ، ورحلتها الطويلة مارة بقصور ملوك أوربا وأمرائها لتلثم قدمى البابا - كانت هذه كلها أحداثا لا تقل عن الحروب والثورات استهواء للذهن الأوربى .

كانت فى ربيعها الثامن والعشرين يوم غادرت السويد (١٦٥٤) . وأعطاه ابن عمها شارل العاشر ، الذى اختارته ليتبوا عرشها ، خمسين ألف كراون تجمل بها رحلتها ، وقرر لها الديت السويدي دخلا كبيرا ، وحقوق ملكة على حاشيتها . فوصلت هامبورج بعد رحلة سريعة فى الدنمرك ، وهناك صدمت مشاعر الأهالى بنزولها ببيت مالى يهودى كان قد أخلص لها الخدمة وهو يعمل وكىلا ماليا لها . وأجتازت هولندا البروتستنتية متنكرة ، ولكنها اتخذت زيها السافر فى أنتورب الكاثوليكية . وهناك استقبلها استقبالا ملكيا الأرشيدوق ليوبولد ، واليزابث ملكة بوهيميا السابقة (وهى ملكة مخلوعة أخرى) ، وابنتها الأميرة اليزابث (وهى تلميذة أخرى لديكارت) . ثم واصلت رحلتها الى بروكسل ، حيث استقبلت بالألعاب النارية ، والصواريخ ، وطلقات المدافع ، والجموع الهاتفة المصفقة . وأسلمت نفسها حينما فى اغتباط للمراقص ومباريات الفروسية ورحلات الصيد والتمثليات ، وأوفد مازاران فرقة تمثيلية من باريس للترفية عنها ، وفى عشية عيد الميلاد أرتدت سرا عن المذهب اللوثرى ، وأعلنت عزمها على ألا تستمع الى مزيد من المواعظ (٣١) « ، ثم أطالت مكثها فى فلاندر ريثما تعد الكوريا البابوية بروما العدة لاستقبالها رسميا فى الكنيسة وايطاليا . وبعد أن غادرت بروكسل اخترقت النمسا فى رحلة وثيدة . وفى انزبروك جهرت رسميا باعتمادها المذهب الكاثوليكي . وكانت رحلتها فى ايطاليا قاصدة روما أشبه برحلات القياصرة الظافرين عظمة وجلالا . فتزينت المدينة تلو المدينة لتحييها ، ونظمت المهرجانات والعروض تكريما لها فى مانتوا ، وبولونيا ، وفانيزا ، وريميني ، وبيزارو ،

وأنكونا ، وأخيرا- (١٩ ديسمبر ١٦٥٥) دخلت روما وسط مهرجان من الأضواء هزا بتنكرها . وفى الغد مضت الى الفاتيكان حيث رحب بها البابا اسكندر السابع . وبعد أن مكثت بروما ثلاثة أيام غادرتها مصحوبة بحرس الشرف لتدخلها ثانية ذلك الدخول الرسمى الذى رتبها لها كبار رجال الكنيسة ، فمرت بقوس نصر ، وبالبورتا ديلبوبولو (باب الشعب) ، الى المدينة ممتطية صهوة جواد أبيض يخطر على مهل ، بين صفوف الجند وحشود الاهالى وكأنما شعرت الكنيسة القديمة أن حركة الاصلاح البروتستنتى بأسرها قد أطاح بها ارتداد امرأة واحدة عن البروتستنتية .

فلما اكتمل هذا كله ، سمح لكرستينا بأن تتصرف فى وقتها كما تشاء ، تستقبل الأساقفة ، والحكام ، والعلماء ، وتزور المتاحف ، والمكتبات ، والاكاديميات ، والأطلال ، وتدهش مرشديها بمعلوماتها فى تاريخ ايطاليا وآدابها وفنونها . وأغرقتها كبار الأسر بالولائم والهدايا والتحيات ، ووقع الكردينال كولونا فى غرامها وهو فى الخمسين ، وعزف لها ألحان حبه ، ولم يكن بد من نفيه انقاذا لكرامة الكنيسة . وما لبثت أن وجدت نفسها وقد تورطت فى منافسات الحزبين الفرنسى والأسبانى فى البلاط البابوى . وقطعت السويد دخلها المقرر لها حين وجدت مشقة فى تمويل حربها مع بولنده ، فرهنت مجوهراتها ، وتلقت قرضا من البابا .

وفى يوليو ١٦٥٦ خرجت فى زيارة لفرنسا . وهناك أيضا لقيت ما تلقى الملكات من تكريم . ودخلت باريس على جواد أبيض مطهم ، وخرج ألف فارس لاستقبالها ، وهتفت لها الجموع ، وكاد كبار الموظفين يخنقونها بازهارهم الخطابية ، ووصفها دوق جيز ذلك العهد ، الذى أوفده مازاران لمرافقتها ، بهذه العبارات :

« ليست طويلة ، ولكن لها خصرًا ممتلئًا وشفتين كبيرتين ، وذراعين حلوتين ، ويدها بضعة حسنة التكوين ، ولكنها أقرب الى يد الرجل منها الى يد المرأة ووجهها كبير دون أن ينتقص ذلك من مظهره وأنفها معقوف ، وفمها كبير نوعا ولكنه ليس منفرا وعيناها بديعتان تشعان نارا وعلى رأسها غطاء عجيب جدا »

ياروكة رجل ، كثة عالية . . . ترتدى جذاء رجل ، ولها نبرات صوت الرجل وكل تصرفات الرجل تقريبا ، - تتظاهر بلعب دور المرأة المسترجلة (الأمازونة) . . . وهى غاية فى التادب والمجاملة ، وتتكلم ثمانى لغات ، لا سيما الفرنسية - وكأنها ولدت فى باريس ، انها تعرف أكثر مما تعرف أكاديميتنا ، مضافا اليها الصوريون ، وتفهم التصوير فهما جديرا بالاعجاب ، وكذلك تفهم كل ما عداه . انها لشخصية غاية فى الغرابة (٣٢) .

وأنزلت جناح الملك فى اللوفر . ثم صحبها دوق جيز بعد ذلك الى كومبيين ، حيث استقبلها لويس الرابع عشر ، وكان يومها فتى وسيما فى الثامنة عشرة . والتفت سيدات القصر حولها كالفراشات ، ولكن أربكهن استرجالها فى اللباس والحديث . وذهبت مدام دموتفيل الى انها « تبدو لأول وهلة وكأنها احدى العجريات سيئات السيرة » ولكن « بعد ذلك . . . بدأت آف لباسها . . . ولاحظت أن عينيها جميلتان متالقتان ، وأن فى وجهها رقة ، ولطفا يمتزج بالكبرياء . وأخيرا أدركت فى دهشة أنها أرضتني (٣٣) . على انه يمكن القول عموما أن النساء اللاتى وشين ما فى المجتمع الفرنسى من عادات وأزياء وبهجة وكياسة ورشاقة ، هؤلاء ساءهن اهمال كرسطينا لمبلسها ، و « افراطها فى الضحك ، وتحررها فى حديثها سواء عن الدين أو عن المواضيع التى تتطلب أصول اللياقة عند النساء مزيدا من التحفظ فيها . . . وقد جهرت بأنها تحتقر جميع النساء لجهلهن ، ووجدت لذة فى التحدث الى الرجال سواء فى المواضيع الطيبة أو الخبيثة . وضربت بالقواعد كلها عرض الحائط (٣٤) » . ويرى فولتير أن نساء المجتمع الفرنسى قسور فى الحكم على هذه الملكة المتمردة لأنها لم تسر على الجادة . قال « لم يكن فى البلاط الفرنسى امرأة واحدة وهبت ذكاءها (٣٥) » . أما كرسطينا فقد حكمت على سيدات البلاط بأنهن شديدات التكلف ، وعلى الرجال بأنهم شديدو التخنت ، وعلى الفريقين بالافتقار الى الاخلاص . وفى سنليس ، فى طريقها عائدة من كومبيين الى باريس ، طلبت أن ترى « آنسة تدعى نينون (دلانكلو) ، مشهورة بالرزيلة ، والتهتك ، والجمال ، والذكاء . ولم تبد أى علامة من علامات الاحترام الا لهذه المرأة وحدها ، دون سائر النساء اللاتى رأتهن فى فرنسا (٣٦) » . وقد

وجدت نينون جبيسة مؤقتا فى دير للراهبات . وتحديث اليها كرستينا فى مرج ، وأقرتها على امتناعها عن الزواج (٣٧) . ثم عادت الى ايطاليا بعد أن زارت مؤسسات فرنسا الثقافية وأهم آثارها الفنية (نوفمبر ١٦٥٦) .

وفى سبتمبر ١٦٥٧ زارت فرنسا ثانية . ولم تستقبل ذلك الاستقبال الرسمى السابق ، ولكنها أنزلت فونتنبلو بما يقرب من الحفاوة بالملوك . وهناك روعت فرنسا بما خالته استعمالا مشروعا لحقوقها الملكية على حاشيتها . وتفصيل ذلك أن ياورها المركيز مونالديسكى اشترك فى مؤامرة ضدها كشفتها باعتراض رسائله . وزاد الموقف سوءا باتهامه رجلا آخر من حاشيتها بالتآمر عليها . فواجهته برسائله التى تثبت التهمة عليه ، وأمرت قسيسا أن يسمع اعترافه ويمنحه غفران الكنيسة ، ثم أصدرت الامر لحراسها فأعدموا المركيز . وصعدت فرنسا ، وحتى أولئك الذين اعترفوا بما منحها الديت السويدى من حقوق على أتباعها صدمهم هذا الاستعمال الفجائى التعسفى لسلطتها فى مسكن يملكه ملك فرنسا . وسمح لكرستينا بأن تنفق الشتاء فى باريس ، وتستمتع بالتمثيلات وحفلات الرقص ، ولكن البلاط تنفس الصعداء حين رحلت الى ايطاليا (مايو ١٦٥٨) .

وقد سبب لها قطع الدخل الذى يأتيتها من السويد من الحرج الشديد ما جعلها فيما روى تطلب الى الامبراطور ليوبولد الأول جيشا تقوده بنفسها ضد شارل العاشر ، ولكن ثناها عن هذه المغامرة العسكرية معاش سنوى من اثنى عشر ألف سكودى قرره لها البابا الاسكندر السابع . وقد زارت السويد مرتين (١٦٦٠ ، ١٦٦٧) لتستعيد دخلها ، وربما تاجها . ورد اليها دخلها ، ولكنها لم تلق ترحيبا فى استكهولم ، واتهمها رجال الدين اللوثريون بأنها تتآمر لتحويل الأمة الى الكاثوليكية ، ومنعت من الاستماع الى القداس فى مسكنها . وكانت بعد كل زيارة من هاتين الزيارتين تعتكف فى هامبورج . ومنها أرسلت مندوبين الى وارسو فى ١٦٦٨ . ليعرضوا ترشيحها نفسها لعرش بولنده الذى خلا باعتزال يوحنا كازيمير . وعزز البابا كلمنت السابع مطلبها ، ولكن الديت البولندى رفضها لأسباب كثيرة ، منها رفضها أن تتزوج . وقد قالت ان امبراطورية العالم بأسرها لن تحملها على الرضا

بالزواج (٣٨) . ثم عادت الى ايطاليا فى ١٦٦٨ ، ومكثت بها حتى ماتت .

وكانت تلك السنوات العشرون الأخيرة أجمل سنى عمرها . وأصبح جناحها فى قصر كورسينى أهم الصالونات فى روما ، وملتقى الاساقفة ، والعلماء ، والملحنين ، والنبلاء ، والدبلوماسيين الأجانب . هناك رحبت بأليساندرو سكارلاتى ، وتلقت من أركانجلو كوريللى اهداء أول سوناتاته المنشورة . وزينت حجراتها بالصور والتماثيل وغيرها من التحف المنتقاة بذوق كان مثار اعجاب الخبراء ، أما المخطوطات التى جمعتها فقد عدت فيما بعد من خيرة ما ضمنته مكتبة الفاتيكان من مخطوطات . وكانت تثبط الاسلوب المتكلف الذى نما فى الشعر الايطالى ، وأثرت على جيدي ليتزعم حركة تعود الى نقاء اللغة ، واستقامة التعبير ، اللذين سادا فى أيام أسرة مديتشي . وكانت مذكراتها مثلا للكلام البسيط القوى ، و « أقوالها الماثورة » . آراء جادة سديدة لامرأة خبيرة بالدنيا ، لم تسمح لتقواها بأن تفسد استمتاعها بالحياة . ولم تكن متعصبة ، فقد أدانت عنف الكاثوليك الفرنسيين فى تنفيذ قانون فسخ مرسوم نانت ، وكتبت تقول « انى أنظر الى فرنسا نظرتى الى مريضة بتر ذراعاها وساقاها علاجاً لمرض كانت تشفى منه تماما بممارسة اللطف والصبر (٣٩) » . وذهب بيل الى أن هذه العواطف بقية متخلفة من تربيتها البروتستنتية ، فويخته على هذا التفسير ، فكتب اليها معتذرا ، فغفرت له شريطة أن يوافقها بكتب جديدة أو غريبة (٤٠) .

وماتت عام ١٦٨٩ بالغة الثالثة والستين ، ودفنت فى كنيسة القديس بطرس . وبعد موتها بثلاث سنوات أسس جوفانى ماريا كريسكمينى تخليداً لذاكرها « الاكاديمية الاركادية » وأكثر أعضائها الاوائل ممن اجتمعوا تحت جناحها . وواصلوا الصلة القديمة بين الشعر والرعية ، وسموا أنفسهم رعاة ، واتخذوا أسماء ريفية ، وعقدوا اجتماعاتهم فى الحقول . وأنشأوا فروعا فى مدن ايطاليا الرئيسية ، ومع احتفاظهم بالحيل البارعة فى بنیان قصائدهم ، فإنهم أنهوا تسلط الأوهام على الشعر الايطالى .

٤ - من مونتيفردي الى سكارلاتي

كانت الموسيقى فى ذلك المجتمع المرح ، مجتمع ايطاليا القرن السابع عشر ، نعمة الحياة ونسيمها . لقد خاض هذا الشعب المشبوب بالعاطفة الحروب فى الأوبرات ، وحارب معارك الحب فى أغانيه الشعرية ، بعد أن ألزمته أسبانيا والبابوية السلام رغم ارادته .

واتخذت الآلات الموسيقية عشرات الأشكال . وأصبح الأرغن الآن منفاخا مزينا له لوحتا مفاتيح لليدين ولوحة للقدمين ، بالإضافة الى أنابيب متنوعة ، وكان هناك بالطبع أراغن متنقلة للشارع . وفى تاريخ مبكر (١٥٩٨) نسمع بآلة أخرى لها لوحات مفاتيح سميت « البيانو أى فورتى » (أى الخافت والقوى) ورد ذكرها فى قائمة الآلات التى يملكها ويعزف عليها الدوق الفونسو الثانى فى مودينا ، ولكننا مازلنا نجهل الفرق بينها وبين « البيلن القيثارى » بنوعيه *elavicembalo* (الهاريسيكورد) و *spinetta* . وينقضى قرن قبل أن نسمع بالبيانو فورت. ثانية . وفى ١٧٠٩ عرض بارتولوميو كريستوفورى آلة موسيقية سماها *gravicemblo col pianoe forte* ، وكان صانع الآلات الموسيقية لأمير عاشق للموسيقى يدعى فرديناند دي مديتشي بفلورنسة . وكانت هذه الآلة تختلف اختلافا هاما وان كان طفيفا عن الهاريسيكورد . فالنغمة تصدرها مطرقة صغيرة ترتفع لتقرع وتر ، وفى الامكان خفض الصوت أو رفعه بتنويع لمس الأصابع للمفتاح - بينما النغمات فى الآلات السابقة ذات لوحات المفاتيح تنبعث بواسطة ريشة (من ريش الطير أو الجلد القاسي) ترتفع لتقرع الوتر ، ولا يمكن أحداث تنويع فى قوة الصوت X . وحل البيانوفورت بالتدرج محل الهاريسيكورد فى القرن الثامن عشر ، لا لأنه يستطيع أن يعزف الأصوات « الخافته والعالية » فحسب ، بل لأن مطارقه كانت تبلى بسرعة أقل مما يبلى ريش الطير .

أما الكمان فقد تطور من القيثارة (الليرة *lyre*) فى القرن

X فى متحف المتروبولتان للفنون بنيويورك أحد بيانات كريستوفورى الذى يرجع تاريخه الى ١٧٢٠ .

السادس عشر ، لاسيما فى بريشا X . فجلب أندريا أماتى فن صنع الكمان الى كريمونا ، وهناك تفوق حفيده نيكولو على جميع منافسيه فى هذه الحرفة ، الى أن تفوق عليه هو ذاته تلميذاه أندريا جارنيرى وأنطونيو ستراديفاي . وآل جارنيرى مثال آخر من الأسر التى جرى فيها النبوغ فى نفس الحرفة ، فهناك أندريا وولداه بييترو « دى مانتوا » وجوزيبى الأول ، وحفيده بييترو الثانى « دى فينيتسيا » وحفيد أخيه جوزيبى الثانى « ديل جيزو » - الذى جعل باجانينى يؤثر الكمان على سائر الآلات الموسيقية . وأقدم كمان يحمل توقيع ستراديفارى يرجع تاريخه الى ١٦٦٦ ، حين كان فى الثانية والعشرين ، وقد كتب عليه « أنطونيو ستراديفاريوس ألومنوس نيكول أماتى فاتشيبات آنو ١٦٦٦ » ويلي هذا شعاره الشخصى - وهو صليب مالطى والحرفان الأولان من اسمه ، أ . س ، داخل دائرة مزدوجة . وكان يوقع فيما بعد ببساطة يشوبها الفخر « ستراديفاريوس » . وقد ألف العمل دون انقطاع ، والقصد فى الطعام ، وعاش ثلاثة وتسعين عاما ، وجمع من الثروة بفضل ما تميزت به آلاته من روعة الجمال والبناء والنغم والصقل ما أصبحت معه عبارة « غنى مثل ستراديفارى » مرادفا كريمونيا للثراء العريض . والمعروف أنه صنع ١١٦٦ كمانا ، وفيولا ، وفيولنسلو ، وبقيت منها على قيد الحياة ٥٤٠ كمانا ، بيع بعضها بعشرة آلاف دولار (٤١) . وقد ضاع سر الطلاء الذى كان يصقل به آلاته .

وشجع هذا التحسن فى الآلات تطور الاوركسترا ، وتأليف الموسيقى الآلاتية وأداءها . واكتشف المؤلفون والعازفون فى الكمان مرونة فى الحركة وتنوعا فى النغم يستحيلان على الصوت البشرى ، اذ كان فى استطاعتهم أن يصعدوا ويهبطوا على السلم الموسيقى بيسر يفوق الوصف فعلا ، وأن يبنوا التنوعات ويتلاعبوا بها ، وأن يهربوا من روتين اللحن ويقتحموا الجديد من الايقاعات ، والتطويرات ، والتجارب . وأمکن بعد الجمع بين الآلات الكثيرة تحرير التأليف من الرقص ومن الأغنية على السواء ، واستطاع التأليف أن يحلق على

X زعم فلودزيميرز كامينسكى فى ١٩٦١ أنه وجد أوصافا للكمان فى مخطوطات بولندية ترجع للقرن الرابع عشر - لوس أنجيليس تايمز ، ١١ أغسطس ١٩٦١ .

جناحيه هو فى الجديد من المنتاليات ، والتجميعات ، والأشكال . وكان تومازو فيتالى سباقا بسوناتات الكمان التى لم يعرف لها مثيل من قبل فى غنى الابتكار ، والتى أعانت على ارساء تعاقب الحركات السريعة والبطيئة والنشيطة . أما أركانجيلو كوريللى ، فقد مهد الطريق بوصفه مؤلفا وعازفا ماهرا ، للموسيقى الحجرية التى شاعت فى القرن الثامن عشر بسوناتاته التى وضعها للكمان ، وكان له هو وفيتالى فى ايطاليا ، وكوناو وهينريش فون بيبر فى ألمانيا ، الفضل فى اعطاء السوناتا بناء وشكلا باعتبارها قطعة « تعزف » بالآلات فقط ، مقابل « الكانتاتات » التى هى مؤلفات تغنى بالصوت . وكوريللى هو الذى قرر شكل « الكونشرتو جروسو » - كمانان وفيولنتشيللو واحدة تقود أوركسترا وتريا - بألحان بسيطة مشجيه مثل « كونشرتو عيد الميلاد » (١٧١٢) ، ففتح بذلك طريقا لكونشرتو فيفالدى وهندل ومتتابعات باخ الأوركسترية وقد احتفظت ألحان كوريللى بشعبيتها فى القرن الثامن عشر فترة طالت حتى لقد خيل لبيرنى وهو يكتب حوالى عام ١٧٨٠ أن شهرتها ستبقى « ما بقى النظام الحالى للموسيقى مبعث بهجة لأذان البشر (٤٢) »

وكما أصبح كوريللى المؤلف المفضل للكمان ، فكذلك هيمن أليساندرو شتراديللا على موسيقى هذا العصر الصوتية ، بالأصوات الفردية ، والثنائية ، والثلاثية ، والأوراتوريوات . وكانت حياته ذاتها دراما فى الموسيقى ، وقد حولت الى تمثيلية وأوبرا . ذلك أنه أحرز فى عمله مدرسا للغناء بالبندقية نجاحا محزنا . فقد فرت معه لروما احدى تلميذاته الأرستقراطيات ، واسمها أورتنسيا ، مع أنها كانت مخطوبة لعضو الشيوخ البندقى ألفيزى كونتارينى . وأرسل عضو الشيوخ فتاكا ليقتلوه . ولكن حين سمعه هؤلاء القتلة المرهفو الحس يرتل الدور الرئيسى فى لحنه « أوراتوريو دى سان جوفانى باتيستا » فى كنيسة سان جوفانى باللاتيرانو ، تأثروا بالموسيقى (كما تقول القصة) تأثرا جعلهم يقلعون عن القيام بما كلفوا به ، ويحذرونه هو ورفيقتة ليلتمسا مخبا آمنا . وفر العشيقان الى تورينو ، ولكن سرعان ما أشتهر أليساندرو هناك بمؤلفاته وصوته شهرة هددته بالخطر . وأرسل كونتارينى فاتكين لا يهويان الموسيقى ليقتلاه ، فهاجماه ، وتركاه وهما

يحسبانه قد مات . ولكنه أفاق ، وتزوج أورتنسيا ، ورحل معها الى جنوه . وهناك عثر عليهما ماجورو عضو الشيوخ ، قطعناهما طعنات أودت بحياتهما (١٦٨٢) (٤٣) . وظل الأوراتوريو الذى قيل انه أنقذ حياته محتفظا بشعبيته قرنا كاملا ، وقد مهد السبيل أمام هندل .

وغدت الأوبرا الآن هوسا فى ايطاليا . فالبنديقية وحدها كان بها ست عشرة دارا للأوبرا فى ١٦٩٩ ، وقد استمعت الى قرابة مائة أوبرا مختلفة بين عامى ١٦٦٢ و ١٦٨٠ (٤٤) . كذلك أقبلت نابلى على هذه الفرجة المشجعة بما يقرب من هذا التهافت . أما فى روما فقد أصبحت الأوبرا رمزا على حركة علمنة الموسيقى السائرة قدما ، وقد ألف كلمنت التاسع نفسه بعض الفكاهيات الموسيقية قبل أن يرتقى عرش البابوية (٤٥) . وكان هناك أضحلال مؤقت فى جودة الأوبرا الايطالية بعد مونترفردى ففقدت الحبكات بعض وقارها ودلالتها ، وازدادت سخفا وعنفا . وطور فرانشسكو كافاللى ، أحد تلاميذ مونترفردى ، اللحن المنفرد باعتباره أحلى جزء من العرض ، وسرعان ما طالبت الجماهير بسلسلة من الالحن الدرامية ، وكانت تحتل فترات الاستراحة بصبر نافد . وقام الخصيان من الغلمان أو الرجال بكثير من أدوار السوبرانو أو الكونتراقو ، ولكن البريمادونات بدأن الآن ينافسن الملكات . ووجه ملتن أغنيات لاتينية الى ليونورا بارونى ، وخرجت نابلى على بكرة أبيها لترحب بأم ليونورا ، أدريانا بازيلى ، أعظم المغنيات السوبرانو اثارة للأحاسيس فى زمانها - ولعل أجهزة المسرح الآلية بلغت فى هذا العصر الغاية التى ما بعدها غاية . يقول مولنتى أن مسرح سان كاسيانو ، فى بنديقية القرن السابع عشر ، كان يستطيع عند الطلب أن يعرض قصرا ملكيا ، وغابة ، ومحيطا ، وجبل أوليمب ، والجنة ، ومرة علقت قاعة رقص كاملة الاضاءة ، بكل أثاثها وراقصيتها ، فوق المسرح الثابت ، وكانت تخفض لتستقر عليه أو ترفع لتوارى عن الأنظار حسب مقتضيات القصة (٤٦) . وحاول ماركانطونيو تشستى أن ينقذ الأوبرا من الاغنية ، فأعطى مزيدا من الاتساع والبروز للاستهلل ، ومن المنطق والرصانة للرواية ، ثم نوع الغناء بالريستاتيف . وكان تشستى وكوريللى كلاهما مبعوثين موسيقيين ، حملا الأوبرا الايطالية الواحد الى باريس على عهد لويس الرابع عشر ، والآخر الى فيينا على عهد ليوبولد الأول . وهكذا كانت

أوربا شمال جبال الألب ، فى فن الأوبرا ، مستعمرة ايطالية (٤٧) .

وكان أبرز ملحنى الأوبرا الآن أليساندرو سكارلاتى . ولقد طغت شهرة ابنه دومنيكو اليوم على شهرته ، ولكن اسم « سكارلاتى » كان الى عهد قريب يعنى أليساندرو ، وكان دومنيكو أشبه بتوقيع متعاقب سريع على وتر اسم مشهور . وقد وفد أليساندرو على روما وهو فى الثالثة عشرة ، ودرس حيناً على كاريسيمنى ، ولحن للكانتاتات ، وحفز همته فن ستراديللا وسيرته ، وفى العشرين أخرج أولى أوبراته المعروفة *L'errore innocente* (الغلطة البريئة) وقد أعجبت الأوبرا كرسطينا ملكة السويد ، فبسّطت جناحها على أليساندرو ، وأخرجت أوبراته التالية على مسرحها الخاص . وفى ١٦٨٤ قبل وظيفة « المايسترو دى كابلا » لنائب الملك الأسباني فى نابلى ، وظل يشغلها ثمانية عشر عاماً ، يخرج الأوبرات فى تتابع سريع حتى بلغت عند وفاته على الأقل ١١٤ ، لا يعيش منها اليوم سوى نصفها ، ولعل سوليمينا رسم فى هذه الفترة اللوحة المتأخرة التى ترى فى كونسرفاتوريو نابلى الموسيقى - وجه نحيل ، يفيض حساسية ، وتركيزاً ، وعزيمة .

وجاءت حرب الوراثة الاسبانية فكدرت صفاء نابلى ، وتأخر صرف راتب سكارلاتى كثيراً حتى اضطر للرحيل الى فلورنسة مع زوجته وأسرته ، ولحن وأخرج الأوبرات تحت رعاية الأمير فرديناند . وبعد عام انتقل الى روما رئيساً لفرقة مرتلى الكنيسة للكردينال بييترو أوتوبونى ، وكان كنسياً مرحاً مثقفاً ، خلف كرسطينا قطبا وراعياً للفنون فى روما ، ووزع طاقاته الدنيوية على الفن والأدب والموسيقى والخليلات (٤٨) . وفى ١٧٠٧ ذهب أليساندرو الى البندقية حيث أخرج رائعته *Mitridate Eupatore* وهى أوبرا تتميز بخلوها تماماً من تشويق الحب . فى ذلك العام دانت نابلى للحكم النمساوى ، فدعا نائب الملك سكارلاتى ليعود الى سابق وظيفته ، فوافق ، وأنفق هناك العقد الأخير من حياته ، حين بلغ أوج شهرته .

وقد قررت أوبراته أسلوباً دام نصف قرن . جعل الاستهلال مؤلفاً هاماً لا يرتبط بالأوبرا ، وقسمه الى ثلاث حركات ظلت قياسية حتى

مجيء موتسارت : الأليجرو ، والأداجيو ، والأليجرو . أما اللحن (الأريا) فأعطاه سيطرته النموذجية فى القرن الثامن عشر وشكله الاعادى *da capo* ، الذى يعيد فيه القسم الثالث الأول ، ونفت فيه الحرارة العاطفة ، والحنان ، والتلوين الرومانسي ، وجعله أداة لابداعات المغنين فى العزف والارتجال ، ولكن تكراره قطع الوجدان والحركة قطعا مفتعلا . وقد قاوم حينما طلب الجماهير للألحان العاطفية ، وأخيرا أذعن ، وظلت دراما الموسيقى خمسين عاما تحظى بألف انتصار دون أن تنتج أثارا قادرة على مغالية تقلبات الذوق . واضمحلت الأوبرا حتى أيقظها جلوك لحياة وشكل جديدين ، فى فيينا (١٧٦٢) وبباريس ، بجمال أوبرا *Orfeo ed Euridice* المقيم .

٥ - البرتغال : ١٦٤٠ - ١٧٠٠

حين توج دوق براجانزا ملكا باسم يوحنا الرابع (١٦٤٠) بدأت البرتغال حربا امتدت ثمانية وعشرين عاما لتدافع عن استقلالها الذى استردته من أسبانيا . وقدمت لها فرنسا يد المعونة حتى ١٦٥٩ ، حين وافق مازاران فى صلح البرانس على أن يكف عن مساعدة البرتغال . واتجه الفونسو السادس الى انجلترا طالبها العون . وأوفدت كاترين أميرة براجانزا الى لندن عروسا لتشارلز الثانى (١٦٦٣) ، حاملة معها صداقا هو بومباى ، وطنجه ، و ٥٠٠.٠٠٠ جنيه . وأرسلت انجلترا الجند والسلاح مقابل ذلك . وبهذه المعونة وغيرها ، وبجهود البرتغاليين وقيادتهم وحسن نظامهم قبل كل شيء ، راحوا يردون جيوش أسبانيا على أعقابها الواحد تلو الآخر ، حتى اعترفت أسبانيا رسميا بمقتضى معاهدة لشبونة (١٦٦٨) باستقلال البرتغال .

وعزز بيدرو الثانى العلاقات مع انجلترا بمعاهدة ميثوين (١٧٠٣) . فوافقت كل من الأمتين على أن تمنح الأخرى تعريفات تفضيلية ، وعلى أن تستورد البرتغال السلع المصنوعة من انجلترا . وتستورد النبيذ والفاكهة من البرتغال . وهكذا شربت انجلترا القرن الثامن عشر نبيذ البورت من أوبورتو ، بدلا من الكلاريت « الصافى **clear** » من بوردو . وقد وفر هذا التحالف الاقتصادى للبرتغال ومستعمراتها الباقية حماية دائمة من أسبانيا وفرنسا .

وفى ١٦٩٣ كشفت مناجم ذهب ميناى جيرايى فى البرازيل ،
وسرعان ما غلت لبيدرو الثانى من سبائك الذهب ما أتاح له أن يحكم
بعد ١٦٩٧ دون حاجة لدعوة الكورتيز (المجلس التشريعى) للموافقة
على منحه المال ، وأن يحتفظ فى لشبونه ببلاط من أفخم البلاطات فى
أوربا . على أن الذهب الأمريكى تمخض فى البرتغال عن نفس النتائج
التي تمخض عنها فى أسبانيا : فقد استعمل لشراء السلع المصنوعة من
الخارج بدلا من تمويل المشاريع الصناعية فى الداخل ، وظل الاقتصاد
الوطنى اقتصادا زراعىا كسولا ، وحتى الكروم المحيطة بأوبورتو
وقعت فى قبضة الانجليز الذين اشتروها بالذهب البرتغالى الذى حصلوا
عليه من التجارة الانجليزية .

وواصل المؤلفون البرتغاليون تنشيط الأدب بالأعمال . من ذلك
أن فرانشسكو مانويل دى ميلو اللشبونى التحق بالأفواج الأسبانية الذاهبة
الى فلاندر بعد أن درس فى كلية أنتاوى اليسوعية ، وخاض معارك عدة
كتبت له فيها الحياة ، وقاتل فى صف ملك أسبانيا فى التمرد القتلونى
وآلف تاريخا له (تاريخ حرب قتلونيا) فى كتاب من عيون الأدب
الكثيرة التى أسهم بها البرتغاليون فى الأدب الأسبانى . فلما أعلنت
البرتغال تحررها من ربة أسبانيا عرض خدماته على يوحنا الرابع ،
ولقى عرضه ترحيبا ، وجهاز أسطولا برتغاليا وتولى قيادته ، ثم وقع
فى غرام كونتيسة فيلاننوف الساحرة ، فقبض عليه بايعاز من زوجها ،
وقضى تسع سنين فى السجن . فلما أطلق سراحه شريطة أن ينفى الى
البرازيل ، ذهب ليعيش فى باهيا (بايا) ، حيث كتب
Apologos dialogaes . وسمح له بالعودة فى ١٦٥٩ . فأصدر فى السنين
السبع الباقية فى أجله مؤلفات فى الأخلاق والأدب ، وبعض الشعر ،
وتمثيلية سبق بها موضوع وفكاهة تمثيلية مولير « البورجوازي مدعى
النبيل » . ومع أنه كتب بالاسبانية ، فان البرتغال تحسبه بحق أبنا من
اللع أبنائها .

وكاتب آخر هو أنطونيو فييرا ، الذى ولد فى لشبونه (١٦٠٨) ،
وأخذ فى طفولته الى البرازيل ، وتلقى العلم على يد اليسوعيين فى
باهيا ، وانضم الى طريقتهم ، وأدهش الناس جميعا حين اقترح فى
سواعظ وكتيبات بليغة على الحكومات أن تمارس المسيحية . فلما

بعث في مهمة الى البرتغال (١٦٤١) أثر في يوحنا الرابع بنزاهة خلقه وتنوع مواهبه تأثيرا جدا به الى تعيينه عضوا في المجلس الملكي، وهناك شارك بنصيب غير صغير في التخطيط للانتصارات التي ردت لوطنه استقلاله . ثم هز الافكار الراسخة بالمطالبة باصلاح ديوان التفتيش ، وفرض الضرائب على جميع الناس دون اعتبار للطبقة ، والسماح لليهود بدخول البرتغال ، والغاء التمييز بين « المسيحيين القدامى » و « المسيحيين الجدد » (أى اليهود الذين اعتنقوا المسيحية) . وكان مثالا ، من أمثلة كثيرة ، على حيوية اليسوعيين وتعدد قدراتهم ونزعتهم التحررية المتكررة الظهور .

فلما عاد الى البرازيل (١٦٥٢) ، أرسل مبعوثا الى مارانهاو ، ولكن نقده الصارم لهمجية سادة العبيد وأخلاقهم حملهم على السعى حتى نفى الى البرتغال (١٦٥٤) . ودافع أمام الملك عن قضية الهنود المظلومين ، وحصل على شيء من التخفيف عنهم . فلما عاد الى أمريكا الجنوبية (١٦٥٥) ، أنفق ست سنوات كان فيها « رسول البرازيل » ، يقطع مئات الأميال على الأمازون وروافده ، ويخاطر بحياته كل يوم بين القبائل المتوحشة وأهوال الطبيعة ، ويعلم الوطنيين فنون الحضارة ، ويدافع عنهم ضد سادتهم في شجاعة حملت هؤلاء أيضا على الحصول على أمر بنقله الى البرتغال (١٦٦١) . وهناك قبض عليه ديوان التفتيش متهما اياه بأن كتاباته تحتوي على هرطقات خطيرة وتطرفات تستحق الادانة (١٦٦٥) . وهالته الاحوال في سجون الديوان - إذ رأى خمسة رجال محشورين في زنزانه عرضها تسعة أقدام وطولها أحد عشر ، لا يدخلها الضوء الطبيعي الا من شق في السقف ، ولا تغير فيها الأواني الا مرة في الأسبوع (٤٩) . وأطلق سراحه بعد سنتين ، ولكنه منع من الكتابة أو الوعظ أو التعليم . فذهب الى روما (١٦٦٩) ، وهناك رحب به كلمنت العاشر وكرمه ، واستهوى الكرادلة والعامّة بفصاحته . وعبثا التمس منه كرستينا ملكة السويد السابقة أن يكون مرشدها الروحي . وقد عرض على البابا اتهامها مفصلا لديوان التفتيش باعتباره وصمة على جبين الكنيسة ونكبة على رفاهية البرتغال . وأمر كلمنت بأن تحال الى روما كل القضايا المعروضة.

على ديوان التفتيش البرتغالى ، وعطل انوسنت الحادى عشر تلك
الهيئة خمس سنوات :

وأحس فييرا بوحشة للهنود رغم انتصاراته ، فأبحر مرة
أخرى الى البرازيل (١٦٨١) ، وجاهد هناك معلما ومرسلا يسوعيا
حتى أدركته الوفاة وهو فى التاسعة والثمانين . وتحتوى مؤلفاته التى
يضمها سبعة وعشرون مجلدا ، على الكثير من الألغاز الغيبية ، ولكن
عظاته التى قورنت بعضات بوسوية ، وضعت فى صف « فحول اللغة
البرتغالية (٥٠) » ، وخدماته وطنيا ومصالحا حملت الشاعر
البروتستنتى صدى على أن يسلكه فى عداد أعظم سياسة وطنه
وزمانه (٥١) .

٦ - انهيار أسبانيا : ١٦٦٥ - ١٧٠٠

كانت أسبانيا فى ١٦٦٥ لا تزال أعظم الامبراطوريات فى العالم
المسيحى . حكمت الأراضي المنخفضة الجنوبية ، وسردانيا ، وصقلية ،
ومملكة نابلى ، ودوقية ميلان ، ومساحات شاسعة فى أمريكا الشمالية
والجنوبية . ولكنها كانت قد فقدت القوة البحرية والحربية اللازمة
للسيطرة على تجارة هذا الملك المبعثر ومصيره . وكانت أساطيلها
الثمينة قد دمرها الانجليز (١٥٨٨) والهولنديون (١٦٣٩) ،
وهزمت جيوشها هزائم فاصلة فى روكروا (١٦٤٣) ولينز (١٦٤٨) ،
واعترف دبلوماسيوها فى صلح البرانس (١٦٥٩) بانتصار فرنسا ،
وكان اقتصادها يعتمد على تدفق الذهب والفضة من أمريكا ، وهذا
التدفق كان يقطعه المرة بعد المرة الأسطول الهولندى أو الانجليزى .
وتقلصت تجارتها وصناعاتها لاعتمادها على الذهب الأجنبى واحتقار
شعبها للمتاجرة . وكان الكثير من التجارة الاسبانية يحمل فى سفن
أجنبية . ونقص عدد السفن الاسبانية العاملة بين أسبانيا وأمريكا ٧٥ %
فى عام ١٧٠٠ عنه فى عام ١٦٠٠ . وكانت البضائع المصنوعة تستورد
من انجلترا وهولنده ، ويدفع ثمن جزء منها فقط بتصدير النبيذ أو
الزيت أو الحديد أو الصوف ، والباقى يدفع سبائك ذهبية ، ومعنى
ذلك أن الذهب الأمريكى انما كان يمر مرورا بأسبانيا والبرتغال فى
طريقه الى انجلترا وفرنسا والاقاليم المتحدة . وكانت قرطبة وبلنسية

فى حالة اضمحلال واع برم بعد شهرتها الماضية بحرفها . وكان طرد المغاربة قد آذى الزراعة ، وغش العملة المرة بعد المرة أربك المالية . وبلغت حال الطرق من سوء وحال النقل من التخلف مبلغا وجدت معه المدن القريبة من البحر ، أو الواقعة على أنهار صالحة للملاحة ، أنه أرخص لها أن تستورد البضائع ، حتى الغلال ، من الخارج عن أن تجلبها من مصادرها فى أسبانيا . وحاولت الضرائب الباهظة ، بما فيها ضريبة بيع ارتفعت الى ١٤ ٪ ، أن تمول حروب أسبانيا ضد أعداء استعصت هزيمتهم الى حد لا يصدق ، رغم الافتراض بأنهم ملعونون من الله . وهبط مستوى المعيشة هبوطا حمل أعدادا لا تحصى من الاسبان على هجر مزارعهم ومتاجرهم وأخيرا وطنهم . وارتفعت وفيات الأطفال ، ويبدو أنه كان هناك بعض التحديد الماكر لعدد أفراد الأسرة . فقد أصبح آلاف الرجال والنساء رهبانا عقيمين أو راهبات وانطلقت آلاف أخرى للمغامرة فى أراض نائية . وفقدت اشبيلية ، وطليلة ، وبرجوس ، وسقوبية بعض سكانها . وهبط سكان مدريد فى القرن السابع عشر من ٤٠٠.٠٠٠ الى ٢٠٠.٠٠٠ (٥٢) لقد كانت أسبانيا تموت من مرض الذهب .

وفى وسط الفقر المنتشر المتكاثف كدست الطبقات العليا ثروتها وعرضتها على الأنظار . وأمسك النبلاء ، الذين طال اثراؤهم باستغلال الأهالى أو بالكنوز المستوردة ، عن استثمار ثروتهم فى الصناعة أو التجارة ، وراحوا يبهرون أبصار بعضهم البعض بالجواهر والمعدن النفيس ، وبالملاهى الغالية والأثاث الفخم . من ذلك أن دوق ألفا كان يملك ٧٢٠٠ من صحاف الفضة و ٩٦٠٠ من الأنية الفضية الأخرى ، وأن أمير ستليانو صنع لزوجته محفة من الذهب والمرجان بلغ ثقلها حدا لم يسمح باستعمالها . كذلك احتفظت الكنيسة بغناها ، واستكثرت منه (٥٣) ، وسط الفاقة المحيطة بها . ورأى رئيس أساقفة سنتياجو أن يبني كنيسة كاملة من الفضة ، فلما ثنوه عن ذلك بناها كلها بالرخام (٥٤) . لقد كان دم الشعب تربة الثروة ومجد الله .

أما ديوان التفتيش فكان على عهدنا به من شدة البأس ، بل أشد بأسا من الحكومة . وقلت الإحتفالات التى يصدر فيها الحكم بالموت على المهرطقين عن ذى قبل ، لا لشيء الا لأن الهرطقة كانت قد أبيدت

حرقا . وكانت القيود التي أعجزت الكاثوليك في انجلترا لا تقاس بما يلقاه البروتستنت من أخطار في أسبانيا ، وعجز كرومويل عن حماية التجار الانجليز هناك . وقبض ديوان التفتيش في ١٦٩١ على الخادم البروتستنتي للسفير الانجليزي ، وفي تلك السنة نبش الشعب جثة القسيس الأنجليكاني الخاص بالسفير ومثل بها تمثيلا . واستمر حرق اليهود المتنصرين الذين اتهموا بأنهم يضمرون يهوديتهم . وبنى ديوان التفتيش لنفسه في ميورقه قصرا جميلا من الثروة التي صادرها في تحقيق واحد (٥٥) . وكانت الجماهير تؤيد بحرارة هذه المحرقات وان حاول كثير من النبلاء تثبيطها . فلما أعرب شارل الثاني في ١٦٨٠ عن رغبته في أن يشهد احتفالا بحرق المهترطين ، تطوع صناع مدريد بأن يبنوا مدرجا للمشهد المقدس ، وفي أثناء قيامهم بالعمل كانوا يشجعون بعضهم بعضا على الاسراع والاجتهاد بألوان من الحض الديني ، لقد كان حقا جهدا من جهود المحبة . وحضر شارل وعروسه الشابة في كل أبهة الملك ، وحوكم ١٢٠ سجينا ، وأحرق واحد وعشرون حتى الموت في مرجل في الميدان الكبير ، وكان هذا أعظم وأفخم احتفال بحرق المهترطين في تاريخ أسبانيا ، ونشر كتاب من ٣٠٨ صفحة يصف الحدث ويخلد ذكراه (٥٦) . وفي ١٦٩٦ عين شارل « هيئة كبرى » لفحص مفاصد ديوان التفتيش ، فقدمت تقريرا أماط اللثام عن شرور كثيرة وأدانها ، ولكن الرئيس العام للديوان اقنع الملك بأن يلقي بهذا « الاتهام الرهيب » في زوايا النسيان . فلما طلبه فليب الخامس في ١٧٠١ لم يعثر على نسخة منه (٥٧) . على أن الديوان خفف من غلوائه بعد ذلك وقلل من حرائقه .

أما الكنيسة فقد حاولت أن تفتدي ثروتها وتدعم الايمان بتمويلها للفن . ففي ١٦٧٧ صمم فرانشسكو دي هيريرا ايلموزو كتدرائية سرقسطة الثانية التي سميت « ديل بيلار » لأنها تفاخر بعمود اعتقد الناس أن العذراء نزلت عليه من السماء . وجاءت العمارة الباروكية الآن الى أسبانيا ، وبين عشية وضحاها تحول المزاج الاسباني من الاكتئاب القوطي الى الاسراف الزخرفي . وأشهر المعماريين هنا خوزي شوريجويرا ، وقد أصبح لفظ « شوريجويريسكا » حينا علما على الباروك الاسباني . ولد في سلمنقه عام ١٦٦٥ ، وأبدى نشاطا مفرطا

فى العمارة والنحت وصناعة الاثاث والتصوير . فلما وفد على مدريد فى الثالثة والعشرين دخل فى مسابقة لتصميم نعش لجنازة الملكة ماريا لويزا ، ففاز بالجائزة ، وتوطدت شهرته بالبراعة الزخرفية العربية بفضل هذا البناء المختلط (٥٨) ، المؤلف من أعمدة عجيبة الشكل وكرانيش مكسرة ، والمزين بالهيكل العظمية والعظام المتقاطعة والجماجم . ثم عاد الى سلمنقة حوالى ١٦٩٠ ، وظل يكدها عشر سنين ، يزخرف الكتدرائية ، ويبنى المذبح العالى فى كنيسة القديس اسطفان ، والبهو الفخم فى مجلس المدينة . وفى مدريد صمم قرب ختام حياته واجهة كنيسة القديس توما ، ولما مات (١٧٢٥) ترك استكمال البناء لولديه جيرونيمو ونيقولا ، وفى أثناء اشتغالهما بهذه العمليات سقطت القبة فوق رعوس الكثير من العمال والمصلين فسحقتهم . وهاجر الى المكسيك لون معتدل نوعا ما من باروك شوريجويرا ، وهناك أثمر بعض المباني التى تعد من أجمل ما شيد فى أمريكا الشمالية .

وظل النحت تعبيرا قويا عن الروح الاسبانية . وكان مصدر هذه القوة أحيانا واقعية شاذة ، كما نراها بتفصيل دموى فى رأس يوحنا المعمدان أو غيره من القديسين مقطوعى الرعوس . وكان متحف بلد الوليد يحتفظ برأسين من هذا النوع للقديس بولس (٥٩) . وظلت حجب المذبح لونا أثيرا من ألوان الفن ، فترى بيدرو رولدان ينحت الحجب الكبرى فى كنيسة الأبرشية الملحقة بالكتدرائية ، وفى مستشفى دى لا كاريداد فى اشبيلية ، وابنته لويزا رولدانا ، مثاله أسبانيا الفذة تنحت فى كتدرائية قادس مجموعة تماثيل تتركز حول « نوسترا سينورا دى لاس أنجوستياس » (سيدة الأحران) . وهيمن بيدرو دى مينا على العصر بتماثيل عراياه (وما أندرها فى الفن الاسبانى) ، وتماثيل السيدة العذراء ، ومقاعد المرتلين فى كتدرائية ملقا ، ويعده تمثاله « سان فرانسكو » فى كتدرائية اشبيلية من أروع أمثلة النحت الاسبانى . وحوالى نهاية القرن السابع عشر أدرك هذا الفن ما أدرك غيره من تدهور عام . فأثقلت الحشوات بالزخارف ، وزودت التماثيل بأجهزة آلية لتحريك الرأس والعينين والفم ، وأضيف الشعر والملابس الحقيقية ، واللون دائما ، فى جهد للوصول الى أبسط التصور والذوق الجماهيريين .

وولى عصر العمالقة فى التصور الاسبانى ، ولكن

بقى الكثير من صغار الأبطال . فكان خوان كارينو دى ميراندا ، الذى خلف فيلاسكويز مصورا للبلاط ، محبوبا كسلفه تقريبا - رجلا متواضعا لطيفا ، يبلغ به الاستغراق فى عمله مبلغا ينسيه أحيانا هل أكل أو لم يأكل . وقد سرت صورته لشارل الثانى وحاشيته الملك الشاب حتى عرض عليه لقب الفروسية وصليب سنتياجو ، ولكن كارينو رفض هذا التشريف لأنه رآه فوق ما يستحق . وفى تلك الأيام ابتهجت مدريد بقصة « الكنتاريلو دى مييل » (برطمان العسل) . وتفصيل ذلك أن فنانا مغمورا يدعى جريجوريو أوتاندى رسم لوحة للراهبات الكرمليات طلب عليها أجرا مائة دوكاتية ، فاستكثرن عليه الأجر ، ولكن وافقن على تحكيم كارينو . وقبل أن يسمع كارينو بالأمر ، أهدها أوتاندى برطمان عسل ، ورجاه فى أن يضع اللمسات الأخيرة للوحة . ففعل ، وتحسنت الصورة كثيرا . ودهش كارينو حين طلبت اليه الراهبات تقييمها . فرفض ، ولكن فنانا ثالثا قدرها بمائتى دوكاتية ، وكتم السر حتى دفع الثمن .

وفى ختام حياته يسر كارينو سبيل النجاح لأحد خلفائه ، وهو كلوديو كويلو ، الذى ظل يرسم آناء الليل وأطراف النهار دون أن يحقق نتائج ذات بال . فصادقه كارينو ، وحصل له على اذن بأن يدرس وينسخ أعمال تتسيانو وروبنز وفانديك فى قاعات الفن الملكية . وأعانت هذه التجربة كلوديو على النضج ، وفى ١٦٨٤ ، وقبل موت كارينو بعام ، عين كويلو مصورا للملك . وقد أحرز الشهرة فى وطنه بلوخته « ساجرادا فورما » أى القربانه المقدسة ، التى ظهرت فيها هذه القربانة تقدم الى شارل الثانى لوضعها على مذبح فى الاسكوريال . والأسطورة التى من وراء الصورة تعبر عن مزاج أسبانيا . تقول الرواية انه فى أثناء الحرب مع الهولنديين داس بعض الكلفنيين الفجرة قطعة من خبز القربان المقدس تحت أقدامهم ، وسالت من القربانة المصابة قطرات من دم ، هدت للتو أحد مدنسيها الى الكاثوليكية ، وحملت القربانة التى استنقذت الى فيينا فى احترام واجلال ، وأرسلت هدية الى فيليب الثانى ، ومنذ ذلك التاريخ وهى تعرض دوريا ، ملطخة بدم المسيح على العابدين الخاشعين . وصور كويلو الملك وكبار حاشيته راكعين فى تعبد أمام الخبز المعجز . وظهر فى الصورة نحو خمسين

شخصا ، كلهم تقريبا صاحب شخصية متميزة ، وقد رتبوا فى منظور ذى عمق خداع للبصر بشكل ملحوظ (٦٠) . بعد هذا العمل الذى اقتضاه الفراغ منه عامين ، أصبح كويللو سيد الفنانين قاطبة فى العاصمة غير منازع . وبعد ست سنوات (١٦٩٢) حجه بغته وصول لوكا فاريريستو جوردانو من ايطاليا ، وكلف لوكا على الفور بالدور الأول فى زخرفة الاسكوريال من جديد . وزاد لوكا الطين بلة بامتداحه صور كلوديو . وأنهى كويللو الصور التى كلف بها ، ولكنه ألقى فرشاته جانبا . وبعد عام من وصول جوردانو مات كويللو وهو بعد فى الحادية والخمسين ، وقيل قهرا وغيره (٦١) .

وخلال ذلك شهدت اشبيلية ميلاد ووفاة (١٦٣٠ - ٩٠) آخر فنان عظيم فى التصوير الأسباني قبل جويا ، وهو خوان دى فالديس ليال . وكان مثل كويللو برتغالى الأبوين أسباني المولد . وبعد أن أنفق سنوات فى قرطبة ، رحل الى اشبيلية ليتحدى تفوق موريللو . وكان فيه من الكبرياء ما لم يسمح له بأن يقدم لرعاته الجمال الناعم لعذارى (مادونات) محتشمت . وقد صور العذراء فى صعودها ، ولكنه وضع قلبه وقوته فى صور أخرى لا تعرف هوادة فى الغض من لذات الحياة والايماء الى الموت الذى لا مهرب منه . فرسم القديس انطونيوس يتولى فى هلع عن فتنة النساء (٦٢) . وصورت لوحته « ان اکتو أوكولى » (أى فى طرفة عين) الموت هيكلا عظيما يطفىء شمع الحياة التى يكشف ضوءها القصير الأجل ، فى فوضى إختلطت على أرض الحجر ، عدة الاطماع الدنيوية ومجد العالم - الكتب ، والسلاح ، وتاج أسقف ، وتاج ملك ، وسلسلة لطائفة « الفروة الذهبية » . وفى صورة مغايرة تدور حول هذه الفكرة أرانا ليال حفرة مقبرة تبعثرت فيها الجثث والهياكل والجماجم ، ومن فوقها كلها يد جميلة تمسك بميزان تحتوى احدى كفتيه على شعارات فارس ، والأخرى على شارات أسقف ، والكفة الأولى كتب عليها « نيماس » أى لا أكثر ، والثانية « نيمينوس » أى لا أقل - فرجال الدنيا ورجال الدين على السواء وجدوا ناقصين فى موازين الله . ورأى موريللو أول الصورتين ، فقال لفالديس « انها أيها الزميل صورة لا يستطيع المرء أن ينظر اليها دون أن يمسك بأنفه (٦٣) » - وهى عبارة يمكن أن تفسر بأنها ثناء على واقعية المصور ، أو رد فعل عقل سليم للفن المنحط .

ذلك أن الانحطاط كان سمة للعهد ، فلم يشرفه أديب عظيم ، ولم تعرض على مسرحه تمثيلية فذة . أما الجامعات فكانت تنزوى وسط الخراب والظلامية السائدين ، ففي جامعة سلمنقة هبط عدد الطلاب فى هذه الفترة من ٧٨٠٠ الى ٢٠٧٦ (٦٤) . وجاهد ديوان التفتيش وقائمة الكتب المحرمة بنجاح ليقصيا عن أسبانيا كل أدب يسيء الى الكنيسة ، وظلت أسبانيا طوال قرن توصل أبوابها كأنها صومعة عابد فى وجه حركات الذهن الأوربى . وتربع الانحطاط بشخصه على عرش الملك رمزا للعهد .

وبيان ذلك أن شارل الثانى أصبح ملكا وهو بعد فى الرابعة (١٦٦٥) وفى سنى حدائته كانت أمه الملكة ماريانا تحكم البلاد اسما ، أما حاكمها الفعلى فكان كاهن اعترفها اليسوعى يوهانز ابرهارد نيذارد ، ثم عشيقها فرناندو فالنزويلا . وتفاقت الفوضى ، وكانت الوزارة الكفاء التى تولاها دون خوان نمساوى آخر ، أقصر أجلا من أن توقف الانحلال . وفى ١٦٧٧ تقلد الملك ذو الستة عشر عاما الحكم وجلس عاجزا على قمة هذا الصرح المنهار . ولعل التزاوج المتصل بين أفراده أسرة هابسبورج أسهم فى ضعف بدنه وعقله . وكانت الذقن الهابسبورجية فى شارل بارزة بروزا أعجزه عن مضغ طعامه ، ولسانه من الكبر بحيث لم يكذ كلامه يفهم . وظل الى العاشرة يعامل كأنه طفل يحمل بين الذراعين . وكان لا يكاد يستطيع القراءة ، ولم يتلق من التعليم الا القليل ، وكان أعز ميراثه خرافات مذهبه وأساطيره . ويصفه مؤرخ أسباني كبير بأنه « عليل ، أبله شديد التعلق بالخرافات » ، وكان « يعتقد انه ممسوس ، وكان العوبه لأطماع كل من أحاطوا به (٦٥) » . وقد تزوج مرتين ، ولكن « كان من المعروف للجميع أنه لا يستطيع توقع الخلف (٦٦) » . هذا القصير الأعرج ، المصروع ، الخرف ، المصلع تماما قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين ، كان دائما على شفا الموت ، ولكنه حير العالم المسيحي المرة بعد المرة ببقائه على قيد الحياة .

وأصبح تفكك أوصال أسبانيا الآن مأساة أوربية . فقد ازدادت الحكومة اقترابا من الافلاس برغم الضرائب والتضخم واستغلال المناجم

الامريكية حتى عجزت عن دفع فوائد دينها ، وحتى المائدة الملكية اضطرت الى التقدير فى خدمة الملك . أما البيروقراطية الادارية التى قلت رواتبها فكانت فاسدة متراخية . واستبد الفقر بالناس حتى كانوا يقتتلون للحصول على الخبز ، وسطت عصابات من الجياع على البيوت لتسرق وتقتل ، وكان عشرون ألف شحاذ يجوبون شوارع مدريد . أما رجال الشرطة العاجزون عن الحصول على رواتبهم فقد تشبثوا وانضموا الى المجرمين .

ووسط الفوضى والقلق والخراب واجه الملك المسكين ، الكسيح ، نصف المعتوه ، الشاعر بدنو أجله ، فى حيرة وتذبذب ، مشكلة الفصل فى وراثة عرشه . واذ كان سلطانه من الناحية النظرية مطلقا ، فان سطرأ واحدا بخطه كان يكفى للتوصية بامبراطوريته التى تمتد رقعتها فى أربع قارات ، اما للنمسا واما لفرنسا . وانتصرت أمه للنمسا ، ولكن شارل كان يكره تأمرها كما يكره جشع زوجته الالمانية الخبيث . وذكره السفير الفرنسى بأنه ما دام صداق عروس لويس الرابع عشر الأسبانية لم يدفع بعد ، فان تنازلها عن الوراثة قد بطل ، وكان لويس يلح مطالبا بحقوقها ، ويملك القوة لفرض مطلبه . فلو أن شارل داس هذه الحقوق لا شتعلت أوروبا بنيران الحرب ، وربما تمزقت أسبانيا اربا فى هذا الصراع . وانهار شارل تحت وطأة اتخاذ القرار ، وبكى واشتكى من أن ساحة قد ابتلته بخطوب لا قبل له بتحملها . وبينما كان يستمع الى الحجج التى زادته اختلاطا حاصر مثيرو الشعب قصره صائحين فى طلب الخبز .

وفى سبتمبر ١٧٠٠ لزم شارل فراش الموت وكسب الحزب الفرنسى، وهو أحد الأحزاب التى أحاطت به ، رئيس أساقفة طليطلة - وكان كبير أساقفة أسبانيا - الى صفه ، وقد لازم الملك المحتضر ليل نهار ، وذكره بأن لويس الرابع عشر وحده يملك من القوة ما يتيح له الحفاظ على الامبراطورية الاسبانية سليمة واستخدامها معقلا للكنيسة

الكاثوليكية . ونصح البابا انوسنت الثانى عشر شارل بتفضيل فرنسا ،
وذلك تحت الحاح لويس . وخيرا أذعن شارل ، ووقع الوصية المشئومة
التي خلف فيها كل ممتلكاته لفيليب دوق أنجو ، حفيد ملك فرنسا
(٣ أكتوبر ١٧٠٠) . وفى أول نوفمبر مات شارل ، غير متجاوز
التاسعة والثلاثين ، وكأنه شيخ فى الثمانين . وهكذا كانت خاتمة فرع
الهابسبورج الاسبانى فى غروب شاعت فيه حمرة الحرب الداهمة .